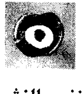
حـياة الحضرى

صاحب القـلنسوة
إسـحاق الأقـــدم

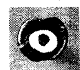


نفرو للنشر

المحتويات

صاحب القلنسوة

إسحاق الأقدم



نفرو للنشر

الإشراف العام

محمد الحسينى

* المراسـلات :

٤٩ ش البطل أحمد عبدالعزيز

٢١ ش الصناديلى بالجيزة

تليفون : ٣٠٣٢٦٠١

٥٧١٢٦١٨

فاكس : ٣٤٧٨٦٨٦

موبايل : ٠١٠٢٣١٣٥٧٩

البريد الإلكترونى :

dar_nevro@hotmail.com

جمهورية مصر العربية

الكتـــاب : صاحب القلنسوة

إسحاق الأقدم

المؤلفـــة : حياة الحضرى

الطبـعـة : الأولى ٢٠٠٥ م

الغـلاف : للفنان عمر چهان

رقم الإيداع : ٣٢٨١ / ٢٠٠٥

تقديم

لاتزال هذه الفنانة المبدعة المفكرة تُثرى الحياة الثقافية بكل أصيل وجديد .

يظهر تشكيلها الجمالىّ بفتوحاتٍ أصيلة وجديدة ويذخر فكرها بالرصانة والمسؤولية ، تعتمد العقلانية والمنطق بين الأفكار والمذاهب والروحانيات والوجدانيات وتمس برفق الموروثات الاسطورية والملحمية والدينية ، واعية بدور المثقف الكاتب المفكر نحو جمهور قرائه .

فى التشكيل الجمالى لغتها تتحلى بالصحة والسلامة وتبدى فيها مجازات وإستعارات دافئة ، وتعلو حتى نصل إلى مدرج عالٍ من الرمز .

أما الفكر فهو قويم مستقيم ، على الرغم من قدم الموضوع الذى يغرى بالغيبيات والغموض ، لكنها أفلحت فى أن تشد هذا الموروث العزيز إلى عصرية عقلانية ناصعة

أ . د عبد المنعم تليمه

مقـدمـة

التـاريخ يحـوى الزمن وخـزائن الحكـايات والمرويات ونحن الآن فى رحلة تاريخية قديمة قدم الزمان رواها الاجداد للأبناء

هى رواية عن أقدم إسحاق .. الذى طاف العالم أجمع خمس مرات دون أن يتوقف أكثر من ثلاثة أيام فى مكان واحد ، اخترق الجبال ومشى الغابات وعبر البحار حتى وهن عظمه وحرقت الشمس جلده ولونت بشرته ومن هذه القصة ..

يعرف أن هذا الاسحاق ولد قبل مولد المسيح بعشر سنوات كما ستحكيها لنا الرواية ويعيش معها أو مع هذا الاسحاق فى رحلاته التى فرضت عليه نتيجة لهذه اللعنة التى حلت به .

هذه الرواية لن تكون غـراميـة أو بوليـسيـة .. ربما تكون تاريخية والأرجح أنها فانتازيا حقيقية تغلب عليها طابع الاسطورة والموكدة أنها شئ من الحقيقة أضيف إليه الكثير من الخيال والمبالغة .. ايما كان الأمر أتمنى أن تصل إلى كل من يقرأها .. كما أريدها منتهى المتعة والمعرفة فى أن نسافر معاً إلى أمريكا و أيطاليا و فرنسا والمانيا و مصر وسوريا وتونس وغيرها من بلاد العالم شرقاً وغرباً لنتعرف على كل ما تعرض له هذا الاسحاق من الالام والأهوال نتيجة لقضية المسيح عليه السلام.

والله أسأل التوفيق فى كل ماأريد

حياة الحضرى

الرحلة الأولى

(ألمانيا)

علي باب مدينة " هيدلبرج " تلك المدينة العظيمة الشهيرة بجامعتها الكبرى، حيث يمر نهر الراين نتعكس عليه أشعة شمس مائلة للغروب تاركة خلفها هدوء الطبيعة وخفوت أصوات العصافير في غروب يوم من أيام شهر يولية . وعلي الطريق المؤدي إلى بولونيا مر شيخ أشيب طويل القامة وهو يخطو خطوات واسعة سريعًا، كأنه يريد إدراك شيء فاته، تلوح على وجهه علامات الهمّ والغمّ، ويقرأ على جبينه نحس الطالع كأنما صادف أهوالاً كثيرة في الحياة الدنيا .

كان هندام الرجل شبيهًا بهندام يهود الشرق في زمانهم القديم. وعلى رأسه قلنسوة سوداء منظرها يعيد ذكري سكان آسيا في العصور الغابرة، يسترسل منها خصلات غزيرة من شعره الأبيض. لحيته الهائلة تتدلى على صدره وبطنه بالغة في طولها نصف قامته. وقد فرش على صدره قطعة من الجلد المرن تستره إلى الفخذين، ووضع على كتفه حقيبة تحتوي على كل ما يملك من متاع الدنيا، وبيده عصا طويلة تنتهي بقبضة غليظة .

مر على هذه الصورة أمام حانة كانت في ذلك الحين مأوي للأدباء وطلبة العلم من كلية هيدلبرج الشهيرة وكان يجلس بها وقتئذٍ شابان ظريفان تبدو على وجهيهما دلائل البشر والسرور ويسهل معرفة أنهما من طلبة الجامعة لما عليهما من لباس وجيه وهيئة فاخرة : وأمامهما أقداح الجعة، وبأيديهما لفافات التبغ، يدخنان تارة ويتقاسمان الشراب تارة أخرى .

فلما رأيا ذلك الشيخ العجوز قادما هالهما منظره، وأخذهما العجب فأبي أحدهما إلا أن يعرف ما وراءه، ونهض مسرعًا نحوه كمن يريد أن يغتنم فرصة قبل ضياعها ثم أخذ بيده قائلاً له: " أيها الشيخ ، لا تؤاخذني إذا قلت لك أني أراكَ متعبًا خائر القوي وفي حاجة إلى الراحة . لعلك أت من مكان بعيد؟".

حدق الشيخ ببصره إلى محدثه تحديقًا يشفّ عن حزن ثقل عليه حمله ثم أجاب: إني أكثر الناس عذابًا في الحياة وأشدهم بؤسًا ويأسًا في الوجود ، نعم أنا قادم من أقصى البلاد سيًرا على قدمي مجدًّا في السفر لا يقر لي قرار. ليلاً أم نهارًا. سواء أعتدل الجو أم اكفهر، واشتد الحر ففاق الصخر أم برد الهواء وهطلت الأمطار .

ضاعف حديث الشيخ حب الاستفسار واستطلاع الأخبار فى نفس الشاب ، وكبر عليه أن يدعه دون أن يعرف من أمره شيئًا، فأخذ بيده ليساعده على الجلوس محاولاً أن يخفف من كربه وقال له: إذن لا تبخل على بدنك بالراحة قليلاً، وإليك قدحًا من الجعة

عله يشد من قواك الواهنة .

فأبي الرجل أن يجلس مبينًا أن الجلوس محرَّم عليه وأنه لا يستطيع تناول الجعة إلا واقفًا على قدميه . فأحدث ذلك التصريح الأخير دهشة أخرى عند سامعيه فاقترب أحدهما منه وقال له: ألا تقول لنا مَن أنت أيها الشيخ الجليل ؟

فأجابه : إني لست من هذه البلاد رغم إجادتي للغتكما، ولعلكما تلاحظان على وجهي علامات الشيخوخة القصوى، فلقد ولدتُ في سنة ٣٩٩٠ للعالم أو قبل ميلاد المسيح بعشر سنوات .

قال ذلك بهدوء وبساطة كما يجيب أي إنسان آخر مَن سأله سنّه . فجعل الشابان يلتفتان إليه تارة وإلى بعضهما تارة أخرى كأنهما يقولان لبعضهما : إنه مجنون . فأدرك الرجل ما دار في خلدهما فقال لهما : ما أنا إلا بشر مثلكم وما أنا بكاذب ولا خادع ولا ساحر ولا دجال. إن أريد إلا الإجابة عن سؤالكما بالصدق والأمانة . وما زال الرجل يتكلم حتى فزع سامعاه إذ لاح لهما ثلاث علامات على هيئة الأقواس قد طبعت على جبين الرجل، وبدا لهما فوق رأسه كلمة كتبت بحروف من نار الجمجمة، فأدرك أحدهما سره، ووثب من مكانه وثبة الظبي بلا خوف وأخذ بيد الشيخ قائلاً له : لعلك أنت اليهودي المتجول الذي ملأ العالم اسمه منذ قرون، وجاء بقصصه الإنجيل المقدس على صورة تدهش العقول .

فأطرق الرجل برأسه متنهداً واتكأ على عصاه متثاقلا كأنه يريد أن يقص عليهما ما يجول بخاطره من أوجاع كمينة وحوادث تجعل الولدان شيبًا ثم قال : نعم .. نعم . أنا صاحب هذا الاسم الذي عمّ أطراف العالم منذ عشرات القرون . نعم أنا الرجل الذي بلغ من الكِبَر عتيًّا وصادف من أهوال الدنيا ما لو صادف نهر الرين لأوقف تياره .

فتوسل إليه الشابان أن يقصّ عليهما تاريخ حياته وما صادفه فيها من الحوادث، راجيين ألا يخفي عنهما شيئًا حتى يستطيعا الموازنة بين التاريخ وأقواله، وألا يثقل عليه حديثهما، فهز الرجل رأسه متألمـــًا وقال: أيها الفتيان ، إنكما بذلك تحاولان تفتيح ما بجسمي من جراح، وتذكيان ما بقلبي من نار. وإن قصصي لطويل عليكما، يجرح الآذان جرحًا ويمزق الأحشاء تمزيقًا . تسعة عشر قرنًا وأنا أتجرع من غصص الآلام صنوفًا شتى؛ قصاصًا مني على ما كسبت يداي من جرم، وما ارتكبتُ من إثم أنقض ظهري، وصيرني أعجوبة بين الأنام وحكاية في كل ناد .

أسمي إسحاق الأقدم الذي طاف العالمَ أجمع للمرة الخامسة دون أن يقف ثلاثة أيام في مكان واحد، مخترقًا في سيره السهول والجبال والغابات والبراري والقفار والبحار والأنهار، حتى وهن العظم مني، وسحقت الشمس المحرقة وجهي سحقًا . شمس خط الاستواء التي تشق حرارتها الحجر الجلمود، كما جمدت أعضاؤه

من برد الأقطاب الشديد ، ولكني أصبحت ذا صبر على الشدائد قادرًا على السير الأبدي الذي قدر عليه تنفيذًا لإرادته تعالى الفعال لما يريد .

فقال له الفتيان : عجبًا لأمرك ما أصبرك على هذا العذاب الأليم! ويا لله ماذا عسى أن تكون قد اقترفت في حياتك من ذنب. والله واسع المغفرة قادر على أن يجعل لك مخرجًا مما أنت فيه.

فأجابهما : أراني منجذبًا بعذوبة ألفاظكما، وإني لراغب في أن أسرد لكما تفصيل ما مرّ بي، وأسأل الله ألا تجرّ وقفتي هنا على هذا البلد الأمين مكروهًا شأن كل بلد وقفتُ به من بلدان العالم . على أن الله جل شأنه قد أراد بي خيرًا منذ القرن الثامن حيث لا أستطيع البقاء يومين في مكان واحد، ولم يَمضِ على في هذا البلد أكثر من ثلاثين ساعة ، فيمكنني أن أتم حديثي معكما حتى النهاية. ثم سعل وتنحنح وقال :

سبق أن قلت لكما إن اسمي إسحاق الأقدم وإني ولدتُ قبل المسيح بعشر سنوات، وبقي لدي أن أخبركما أني كنت إسكافيا بمدينة أورشليم، وحدث أن مرّ المسيح أمام داري في مكان يسمى بالجمجمة، وهو إذ ذاك قائم بنشر دين الله تعالى على رؤوس الأشهاد، مؤيدًا بروح من عنده، وآتيًا بالمعجزات العظام . فلما وقع نظره على دنا مني وقال لي بصوت خافت ذي نبرة وراءها

الضجر والأسى : أأنت إسحاق؟ قلت: كلاً . قال: ألا تعرف مَن أنا ؟ قلت: ولا أريد أن أعرفك أنت ولا أمثالك . قال: ألا تسقيني من ماء قدرك هذا ؟ فأبيت عليه الماء . فقال: ويحك إن الظمأ يقتلني وعندك الماء جار في دارك . قلت: لو كان عندي بحر خضمّ ما أعطيتك منه قطرة واحدة. قال: إذن فاسمح لي بالجلوس برهة على مقعدك هذا لأريح عظامي الذائبة . فلم أتمالك أن أجبته بصوت المتعالي المتكبر: إن هذا المقعد غير مخصص لأبناء السبيل، فسِرْ في طريقك ولا تسألني شيئًا .

فقال لي على أثر ما عاملته به من الخشونة المتناهية: اذهب فإن لك في الحياة أن تعيش أكثر من ألفي عام تمشي خلالها ليلاً ونهارًا دون أن تذوق للراحة طعمًا ويدعونك الناس باليهودي المتجول أينما حللت .

وسار بعد ذلك في طريقه خائر القوي يابس الفم . فتبعته ببصري وهو يعلو تارة ويهبط أخرى حتى غاب عن عيني ولم أعد أراه أما أنا فطفقتُ واقفًا على عتبة داري كأني في ذهول، وعرتني رعشة شديدة وحدث بي ما لم أتعوده من قبل، فأظلمت الدنيا في نظري ولم أعد أتمالك حواسي، وشعرت أن الموت نازل بي في هذه الساعة، ويا ليتها كانت القاضية. هناك شعرت أن بأذني نوعًا من الصمم، فلا أسمع إلا صوتًا يدوّي كالجرس ويقول لي: يا إسحاق، إنك تعديت حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه.

لذلك قدر الله عليك أن تسير في مناكب الأرض أكثر من ألفي عام كما سمعت للتو من فم المسيح . انطلق .. انطلق ولا تَنِ لحظة واحدة في سيرك حيث لا تجد في طريقك من أسباب الراحة شيئًا يريحك حتى ولا الموت أيضًا .. وفي طريقك سوف تذبل الزهور وتختفي الطيور، وكل أرض حللت بها سيحل بأهلها الخراب والدمار الشؤم .

بعد ذلك شعرت كأني قد استفقتُ من سبات عميق فصحتُ: رباه، مهلاً حتى تعود أختي وأودع خطيبتي وقرة عيني (راشيل) . فعاد الصوت مرة أخرى قائلا: ليس لك في الدنيا بعد اليوم من أهل ولا عشيرة ولا حب ولا غرام ولا مقر معروف .. انطلق .. انطلق.. انطلق في الحال يا إسحاق .. !!! .

ثم بعد ذلك انقطع الصوت ففتحت عيني لعلي أكون في حلم وإذا بقوة لا تقهر تجتذبني إلى السير وتدفعني إلى الأمام رغم إرادتي، فعلمت أن أمر الله نافذ لا محالة. هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . ثم طفقتُ من ذلك الحين أجدّ في السير مدفوعًا بقوة فوق قوتي، وإرادة فوق إرادتي، كأنني كنت محمولاً على جناح الهواء. ولا زلت كذلك إلى اليوم . أما عن حالي وعيشي فإني أقوى على الجوع شهرًا كاملاً، وإذا تناولت شيئًا من طعام أو شراب فليس إلا وأنا واقف على قدمي . لا أهاب الموت ولا أخشى مرضًا، وكثيرًا ما اخترقت بلادًا انتشر فيها الطاعون

وفتك بالأرواح فتكًا ذريعًا. ولقد اقتحمتُ الغابات الحافلة بالوحوش الضواري فلم تنل مني منالاً بل كانت تفرّ أمامي فرار العصافير لتختفي عن عيني . وخضتُ كل حرب ضروس كانت فيها المقذوفات كالمطر بما يلعب بالأرواح لعبًا فلم يصبني شيء منها بل كنت أزداد قوة وبأسًا. ولم يتغير من هيئتي شيء يذكر من يوم أن برحت أورشليم مسقط رأسي، اللهم إلا شعري الكثيف الذي اشتعل شيبًا وطال إلى الحد الذي تريانه أمامكما . ولقد شاءت المقادير أن أتكلم بلسان كل أمة مررت بها من أمم العالم . فأنا أخاطبكما بالألمانية، كما أتكلم الفرنسية في فرنسا، والإنجليزية في إنجلترا، والصينية في الصين . وكان من نصيبي في الحياة أن أملك خمسة ليرات أشتري بها كل ما كان لازمًا لي حتى إذا ما أنفقتها لا يكلفني إيجاد غيرها أكثر من وضع يدي في جيبي لتناولها مرة أخرى وإن هي إلا ثروة طائلة بالنسبة إلى من لا مطلب له في الحياة سوى إرضاء معدته بأي قوت كان .

أما من حيث ملبسي فلم أظهر ولن أظهر يومًا ما في غير لباسي هذا الذي تبصرانه على بدني الآن منذ قرون مضت وهو لباس يهود الشرق في غابر الزمان .

وفي قدرتي أن أتسلق أعالي الجبال الشامخات كالسنجاب الخفيف الحركة، وأجوب الغابات الكثيفة كالثعبان الزاحف بين أشواكها دون أن يمسني ضرر أو يمزق الشوك لباسي .

وإذا ما قادتني الظروف إلى حيث يقف في طريقي بحرًا أو نهر ولم أجد سفنا عبرت سابحًا في موج كالجبال . وما أكاد أصل إلى الشاطئ الآخر حتى تجف ملابسي كأنني ما عبرت إلا طريقًا. فيا لله كم رأت عيني ! وكم سمعت أذني من عجائب العالم وما فيه ! ولذا فإني لا أهاب شيئًا ولا يدهشني شيء في الوجود .

ولأريكما كيف غادرتُ مدينة أورشليم بعد ما نزل بي غضب الله وسخطه . فلقد انطلقت منها كالسهم وما هي إلا برهة حتى وجدتُ نفسي في بلد مجهول لدي، فطفقتُ هائمًا على وجهي كمن به جنّة . وكان الليل قد أرخى سدوله فرأيتُ على بعد في وسط الظلام الحالك جرمًا عظيمًا أو شبحًا كبيرًا له ظل أشد منه ظلامًا . وكلما اقتربت منه ازداد في نظري عظمًا وضخامة إلى أن كدتُ ألمسه دون أن أقف على حقيقته . فأخذت أجدّ في السير نحوه حتى صرت أمامه فإذا هو غابة كثيفة الأشجار، متلاصقة بعضها ببعض، فخفق فؤادي رعبًا من هذا المكان الذي يخيم فيه سكون الطبيعة . وبعد هنيهة من الزمن برق البرق وقصف الرعد وهطل المطر من السماء بغزارة لم أرها في حياتي ولم يرها إنسان في أي زمان أو مكان.

هناك اغرورقت عيناي بالدموع وصحْت في الفضاء: رباه . إني ما كنت لأبغي الفساد في الأرض وأنت عليم بذات الصدور، وما لي لا أطمع في غفرانك وأنت أرحم الراحمين . فشعرتُ بنفس

القوة التي دفعتني إلى السير من أمام داري أول مرة، ولم أستطع البقاء لحظة واحدة بل سرت مقهورًا مغلوبًا على أمري متخذًا من البرق سراجًا يهديني ومن المطر شرابًا يرويني، وما كدت أرجع البصر إلى السماء تضرعًا حتى لاح لي فيها ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف نارية "الجمجمة" فضعفت قوتي على حمل جسمي حتى ظننت أني أسقط على الأرض، ومددت يدي إلى الوراء علّي أقبض على شيء يعينني على الوقوف، فعثرت على غصن شجيرة بقي في يدي مدة هذا العمر الطويل وهو هذه العصا التي ترونها بيدي في هذه الساعة، فأخذتها وسرت مقتحمًا الغابات مدة الليل الطويل حتى تنفس الصباح وهدأ الجو وظهرت الأرض بما عليها من أوحال الأمطار تعلوها طبقة من أوراق الأشجار التي نثرتها أنفاس الرياح العواصف مدة الليل، وقطعت سهلاً فسيحًا انتهى بي إلى شاطئ بحر عظيم عبرته سابحًا في موج كالجبال .

الرحلة الثانية

(روما)

وعلى أثر خروجي من ذلك البحر وليت وجهي شطر روما، وهي إذ ذاك عروس العالم تحت حكم (دوميتيان)، فسرني جمالها الذي كنت أسمع عنه من وراء حجاب أيام أن كانت في المهد ولا شك أنكما تعلمان علم اليقين ما كانت عليه روما من تاريخها العظيم . إذ في سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وضع (رومولوس) أول أسوار روما حول جبل (بسلاتان) بأن دعا رجالاً من (ليترروري) معروفين بضخامة الجسم وطول القامة وضرب حول المدينة بسور خطة بمحراث وتعلق به عجل وبقرة حسبما كان يقتضيه نظام ديانتهم في ذلك الحين .

ومن روما عرجت على بلاد الجول مخترقًا جبال الألب الشامخات، حيث سبق أن أخبرتكما أني أتسلق أعلي الجبال وأقتحم كل غابة وأخوض كل بحر. ولقد وقع لي حادث كبير حتى ظننت أن فيه هلاكي وأنه آن لي أن أموت وتنتهي مدة هذا العقاب الطويلة . ذلك أن عاصفة هبت عندما كنت على أعلى

قمة من قمم جبالْ الألب كان لها دوي شديد حتى خلت أن الجبل يهتز تحت أقدامي . ثم اشتد زمهرير الجو وتوجت رؤوس الجبال بطبقة سميكة من الثلج الناصع البياض . ولولا أن الله قد قدر عليّ مصادمة الحوادث لهلكت وأنا إذ ذاك بين الأرض والسماء .

ولقد أوحي إلى ضميري أن اقذف بنفسك من أعلى الجبل إلى أسفله فتتقطع إربًا وتموت وتستريح من عناء الدنيا، وإذا بريح قد اختطفتني من قمة الجبل إلى سفحه فلم أدر إلا وأنا ـــتقلب بين الأحجار مختنق الأنفاس، فقلت في نفسي: لقد أدركني الموت فشكرًا لله تعالى على نعمائه!

فرد على صوت ما كنت لأجهله، إذ سمعته من قبل مرتين: إحداهما لأول مرة وأنا على عتبة داري، والأخرى في الغابة الكثيفة . فقال لي : ألا لعنة الله عليك يا إسحاق . . أعلم أن مثلك لا يموت اليوم ولا بعد اليوم .. فقم وسر في طريقك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولما قمت ونفضت عن نفسي غبار تلك السقطة فكأنما نفضت عن جسمي أيضًا جراحه، وسرت سليم الجسم صحيحه لا أشكو شيئًا . فحزنت لبقائي حيًا وقلت: ألم يأنِ لي أن أوفي تلك الدينونة؟ هذا جزاء من يصعّر خدّه للناس . وعند ذلك لاحت مني التفاتة

نحو السماء فاستولى على الرعب إذا أبصرتُ فيها ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف من نار " الجمجمة "، وهنالك تجاذبتني الهموم والأحزان بما لا يسعه صدري ولا صدر إنسان غيري، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت حتى بكيت بكاء الأطفال وصحت : رباه !! أنت تعلم أنني ضعيف لا أبتغي نفقًا في الأرض ولا سلمًا إلى السماء فنجني من الكرب العظيم .

فأحسست بقوة تجذبني إلى السير مسرعًا حتى كنت أسبق الريح العاصفة وإذا بي أخترق بلاد الجول حتى وصلت إلى (لوتيس) وهي قرية تقع بين فرعي نهر السين، ولم تكن ما يهيئه لها مستقبل الأيام من زخرف وجنات وقصور شامخات .

أتعلمان ما هي تلك القرية الصغيرة الآن ؟ هي باريس اليوم عروس الشرق والغرب وزينة الدنيا وبهجتها .. كان أهلها في ذلك الحين متبربرين، بل كانوا متوحشين يعبدون الأصنام والبحار والبحيرات والأشجار والأنهار، وكانوا يعبدون البرق والرعد والأمطار، وكانوا يعيشون منقسمين إلى قبائل شبيهة بعرب الجزائر اليوم أو شعوب (أقوسيا) الجبليين، وكان من رأيهم بقاء الروح خالدة غير أن عاداتهم كانت شنيعة جدًّا كالتضحيات البشرية وغيرها.

فلقد رأيت بعيني رأسي مشهدًا بشعًا لازلت أتخيله إلى اليوم

بأقبح صورة تملأ النفس رعبًا وخوفًا . وذلك أني كنت أعبر غابة من غاباتهم الشاسعة فأبصرت جماعة ممسكة بشرذمة من البشر قد شدوا وثاقها بما تحتبس منه الدماء في العروق، وكان عجبي شديدًا إذ علمت أن هؤلاء راغبون في الموت لاعتقادهم أن الموت ليس إلا انتقالاً سريعًا من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . ورأيت رجالاً بأيديهم الأسلحة البراقة يتأهبون لذبح تلك الضحايا البشرية فاقشعر بدني ولم أتمالك أن صحت فيهم : أيها الناس أهكذا يعمل الإنسان في أخيه الإنسان ؟ أروني أي إله يبتغي أن يكرم بذبح هؤلاء المساكين إن أنتم إلا في ضلال !.

فأجابني بعض هؤلاء الموثقين أنفسهم : لسنا مقادين إلى الموت رغم أنوفنا كما حسبت أيها الشيخ، وإنما نحن نستعذب الموت في سبيل خالقنا الذي يقع عنده ذلك موقع الرضي والقبول، ونحيا بجانبه حياة طيبة ونخلد في نعيم مقيم . ثم أضافوا قائلين: ومَنْ أنت حتى تقف في وجوهنا وتحاول إن تصدنا عما كان يعمل آباؤنا وأجدادنا من قبل ؟ وكيف لك أن تعبر غابتنا المقدسة وأنت لست منّا ولا تعرف من شريعتنا شيئًا وجئت تنكر علينا أعمالنا وتقابل عبادتنا بالسخرية والازدراء ؟

وبشدة الغضب من مناقشتي لهم قبضوا على أسلحتهم البيضاء وأعملوها في نحور الكثيرين منهم ممن مدّوا أعناقهم طائعين مختارين فنبعت الدماء من أعناقهم كما ينبع الماء من أفواه القرب حتى أغمي عليّ من هول ذلك المنظر المريع. وها هو اليوم قد تغير الحال وقامت الشرائع السماوية فوق أنقاض الخزعبلات الوحشية القديمة. فلقد مررتُ حديثًا ببلاد الجول أو بفرنسا الحالية فخيل إليّ أني أرى نفس المخلوقات القديمة وطلعتهم وهيأتهم الجسمانية عينها، اللهم إلا المدنية المتلألئة الزاهية والحضارة الصحيحة والعمران الذي ملأ النفس غبطة وسرورًا . لأن قدماء الفرنسيين لم ينقرضوا أو يختفوا في الفتوحات الكبرى، بل اندمجوا في الفاتحين وتقلبت قواعد لغاتهم وتغيرت أجناسهم .

ورغم هذا التغيير الذي طرأ على بلادهم فإن العنصر الجوهري للشعب الفرنسي هو عنصر – الجلوا – أنفسهم وهم أسلاف الفرنسيين القدماء بالمعنى الصحيح . وأخلاقهم وفضائلهم ونقائصهم هي هي بعينها لم تتغير أبدًا بتغيير ما سواها .

الرحلة الثالثة
(منغوليا)

اخترقت أوروبا ووصلت منها إلى الصحاري الشمالية فلم أر في خلال هذه الحياة الطويلة منظرًا أشد منها ثقلاً على النفس، فإن هواءها يقبض الصدر كأنها قاسمتني لعنة الله وغضبه، وجُست خلال ديار (التتر) فإذا هم أناس ذوو عادات وأخلاق تدهش العقول والألباب . فمعتقداتهم الخرافية تحاكي معتقدات متوحشي آسيا في عبادة الشمس والقمر وكثير من الأجرام السماوية والأرضية . ويخرجون من أكواخهم سراعًا مستقبلين الشمس بالركوع والسجود . يتناولون كميات كبيرة من المشروبات الثمينة تضحية في سبيل معبوداتهم . ويستعملون وجوها صغيرة الحجم صنعت من الخشب تتدلى على جدران أكواخهم ملطخين أفواهها بالسمن واللبن واللحم وغيرها من الأطعمة .

الرحلة الرابعة
(الصين)

ومن بلاد منغوليا مررت ببلاد الصين فإذا هي تملأ الصدور فرحًا وحبورًا وتقرّ برؤيتها العيون . كانت هذه البلاد مهبط الحضارة والمدنية الحقة، وأظنكما لا تجهلان تاريخ هذه البلاد وكونها أقدم الدول وأكثرها عددًا . قد أعجبت أيما إعجاب بعبادات أهلها بقدر ما أعجبت بجمال تربتها واعتدال جوها ومرعاها البهي، ففيها الأراضي الفسيحة والجبال الشامخة والغابات الغاصة بمكامن الحيوانات المفترسة . والصينيون من الجنس الأصفر ذي القامة الطويلة والأجسام الضخمة . لهم وجوه عريضة الشكل حتى تكاد تكون مربعة . ولهم آذان كبيرة مفتحة وعيون مستطيلة وأنوف فطس . يطلقون شعرهم ليطول ويسترسل ويعملون منه خصلة تتدلى على ظهورهم كذنب الحيوان ، وجميعهم من الطفل الصغير إلى الشيخ الهرم . ولهم أقدام صغيرة لا تتفق مع ما هم عليه من ضخامة الأبدان . فإذا ما نظرتما أرجل الرجل قبل جسمه حكمتا أن أمامكما صبيًّا في العاشرة من عمره . وسبب ذلك أنهم

يطوقون قدمي الطفل من عهد الولادة بأطواق محكمة تمنعها من النمو بنسبة نمو الجسم فيشب على هذه الحال ونساء الصين يرتدين ملابس زاهية الألوان فيها من أبيض ناصع إلى أسود قاتم ومن أحمر قانٍ إلى أصفر فاقع، وعليهن أحزمة عريضة تخفي البطن تمامًا . ولجميع الصينيين ما شاءوا من الألوان عدا الأصفر الليموني فإنه محرم عليهم أجمعين . إذ هو اللون الوحيد الذي اختص به البلاط العالي وحده دون سواه .

والصينيون غاية في التقشف إلى درجة القذارة فهم ينامون ليلاً بما يلبسونه نهارًا ولا يكادون يخلعون قمصانهم حتى تبلى على أبدانهم . وغذاؤهم الأرز المسلوق والخضر واللحوم . وطبقة أخرى منهم تتغذى بلحوم الفيران والضفادع والسلاحف وما شاكلها، أما الأغنياء منهم فإنهم يأكلون لحوم الغزلان التي يجلبها صيادوهم بكثرة عظيمة ولحوم الدب والكلاب الصغيرة، إذ إن لحم الكلب يعد من أفخر أطعمتهم الشهية التي يتهافت عليها الكثيرون .

ينقسم الصينيون الوطنيون إلى سبع طبقات مختلفة بعضها عن بعض من حيث الدرجة والمركز الأدبي : الموظفون ورجال الجيش والكتاب المشتغلون بالأدب وأئمة الدين والزارعون والصناع

والتجار . فالأدباء معروفون من بين الموظفين وغير الموظفين، والزارعون هم فقراء الأمة غير أن الحكومة ترعاهم وتشجعهم على أعمالهم . والتجار لم يعد يلتفت إليهم بين الطبقات السالفة الذكر . ومنهم الغواة وعشاق اللهو واللعب إلا أن هؤلاء ممقوتون ومحتقرون في نظر الجميع.

ويعرف الأغنياء بسيماهم وماهم عليه من لباس فاخر سيما وأنهم يضعون شارة لهم يصنعونها من القماش ويطرزونها بالقصب البراق فوق أحزمتهم وقمم طرابيشهم . وهم قوم محبون للأجانب ميالون إليهم كثيرًا، معروفون بالهدوء ولين الجانب، مملوءون بالعواطف الكريمة والأخلاق الحميدة، محبون للخير وفعل الخير .

فماذا حصل للصينيين من جراء قدومي إلى بلادهم ؟ بعد مجيئي بثلاثة أيام إلى هذه الديار الآمنة المطمئنة ، انتشر فيها داء شنيع هو داء الجدري الذي أضر بالناس ضررًا بليغًا وشوّه وجوه الكثيرين منهم ممن أصيبوا به . ولم يصل أطباؤهم النسطاسيون إلى وضع حد لهذا البلاء المبين.

وكنت كلما مررت بلباسي هذا الأجنبي في عينهم تساءل الناس عني وتهامسوا وتغامزوا وكثيرًا ما تبعوني وعرفوا حركاتي حتى عُرفت بينهم بأجنبي لا يعرف في بلاهم دارًا ولا ديارًا . ولقد

استوقفوني ذات يوم وكانوا قد أبلغوا خبري إلى الإمبراطور فأمر بإحضاري على عجل فلما مثلتُ بين يديه قال لي بلهجة الجبار العظيم: مَن تكون أيها الأجنبي ؟ ولما كنت لا أستطيع كذبًا ولا نكرانًا فقد قصصتُ عليه قصصي ففزع مني وأخذ يتفرس في ملامحي كأنه يقرأ فيها ما يطابق الواقع . وكان في حضرته عدد غير قليل من الوزراء والحكام والأمراء فالتفت إليهم وقال لهم بصوت غير الذي خاطبني به : إن كتبنا المقدسة قد نبأت بمجيء هذا الرجل وأشارت إليه بصريح العبارة، ونصت على أنه يجرّ لبلادنا الأمراض الفتاكة والبلاء الشديد، فويحه من ضيف يحيط به الشؤم ونحس الطالع، فعليكم بشد وثاقه وزجّه في غياهب السجون حتى يفصل في أمره وينظر العدل في شأنه ويتبين الرشد من الغي .

وما إن أتمها حتى وثبوا على مِن أماكنهم وثوب الذئاب وشدوا وثاقي وأودعوني سجنًا ضيقًا يكتم الأنفاس كتمًا . فظننتُ حينئذ أنه قد آن لي أن أفارق الحياة، وأخذتُ أبني قصورًا في الهواء تفكرًا وقلت في نفسي: لابد أن الإمبراطور سيأمر بضرب عنقي، وما ظننت إلا حقًّا ؛ إذ إنهم عقدوا مجلسًا كبيرًا للتشاور فيما يجب اتباعه نحوي وقرروا بالإجماع إعدامي شنقًا على مرأى ومسمع من الناس جميعًا حتى أكون عبرة لغيري من الأجانب الذين يفدون إلى

الأراضي الصينية فلا يكونون إلا شؤمًا على أهلها .

أرُسل في طلبي من السجن والكل ينظر إلى بعين التشفّ وحب الانتقام . كان ذلك يومًا مشهودًا اجتمعت فيه سائر طبقات الأمة وقد أعدوا مشنقة نصبوها في ميدان عام لم أر مثيله في السعة ولا أناسًا في عدد الذين كانوا مجتمعين فيه . فلما قدموا بي إلى سلم المشنقة علا الهتاف وارتفعت الأصوات بالصياح من كل مكان قائلين بلسان واحد : فليسقط الساحر !! فليسقط الساحر !! .

وما كدتُ أضع قدمي على أول ِدرجة لهذه المشنقة حتى شعرت بقوة فوق كل قوة قد أوقفتني عن الصعود : فصاح بي الجنود . اصعد أيها الساحر اللئيم . فلم أقوَ على الصعود فانهال عليّ جماعة منهم بالسياط غير أني ما أحسست بسياطهم بل ثقلت في مكاني ولم أزدد إلا جمودًا وسكونًا فأقبل كبير لهم في جماعة من الجنود وأحدقوا بي من كل صوب فما كاد هذا الأخير يشرع في مخاطبتي حتى جمد في مكانه وانشلّت أعضاؤه ومَن معه من الأعوان وعلت وجوههم صفرة الرعب والفزع . فصاح بي وهو يبكي بكاء الأطفال: مَن أنتَ أيها الرجل ؟ وما هي هذه العلامات النارية المنطبعة على جبهتك ؟ وما سر هذه الكلمة المكتوبة بحروف

من نار فوق رأسك ؟؟ أما أنا فقد أدركتُ ما عراه وبصرتُ بالسماء فإذا بها ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف من نار كلمة "الجمجمة". فلم أجد متسعًا من الزمن حتى أجيبه عن سؤاله بل دُفعت إلى الأمام والناس أمامي يفرون فرار العصافير يخلون لي سبيل المرور . وفي أقل درجة من الزمان كنت خارج أسوار تلك المدينة مصحوبا بصوت يناديني : سر.. سر .. سر في طريقك .. سر .. يا إسحاق فإن مثلك لا يذوق للموت طعمًا . فلم أجد بدًا من السير في طريقي وصدري مملوء بالحزن لضياع تلك الفرصة التي ظننت فيها موتي وراحتي من عناء الدنيا، لأنه إذا كان الجسم محتاجًا إلى الحياة فهو إلى الراحة أحوج . ولا معنى للحياة مع التعب والنصب .

الرحلة الخامسة
في قارة إفريقيا
(الجزائر)

بعد ذلك ولّيتُ وجهي شطر إفريقيا . تلك القارة التي لها في التاريخ حظ وافر إذ كان أهلها أكثر الناس علمًا وعملاً، وكانت مهد الحضارة وينبوع العلوم والفنون رغم كثير من الأمم المتوحشة التي عمرتها في الأزمان الغابرة ممن كانوا يعيشون بلا نظام ولا قانون . ويتغذون بأعشاب الغابات ولحوم الحيوانات المفترسة . ويناموت حيث يجبرهم ظلام الليل على الوقوف . وتعلمان الأ حدوثة المشؤومة في إفريقيا التي قصها (سالوست) وأظنكما قرأتما كتاباته في هذا الشأن . وهي أنه بموت هوركيل – بأرض إسبانيا تشتت جيوشه المسكونة من جميع الأمم وأصبحت بلا قيم ولا مرشد فما لبثت أن تبعثرت في جميع الأرجاء .

فمن بين الشعوب التي تتكون منها: الآسيويون والفرس والأرمن ممن مروا بأفريقيا ووطدوا مساكنهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . واقترب الفرس كثيرًا من الأقيانوس واتخذوا من السفن أكواخًا يأوون إليها . واندمجوا في الشعب المسمى

بالجوبوتول وتزوجوا منهم وامتزجوا بهم، وغيّر البعض منهم أسماءهم ولقبوا أنفسهم بالنوميد . ولازالت مساكن القرويين منهم إلى اليوم شبيهة بظهور السفن . سقوفها مقوسة على شكل مستطيل. وقد انضم إلى الميدين والأرمن شعب السيبيين وهو الشعب المجاور لمياه إفريقيا فأسسوا المدن الكبيرة، وتبادلوا تجارة واسعة مع إسبانيين، إذ لا يفصلهم عنهم إلا مضيق صغير . وقد طمس السيبيون أسماء الميديين شيئًا فشيئًا حتى دعوهم بالموريين . وامتد سلطان الفرس ونفوذهم امتدادًا سريعًا ففرقوا بين الآباء والأبناء إذ أرسلوا أبناءهم في احتلال بلاد النوميد .

وشتان بين إفريقيا اليوم وغيرها بالأمس لزيارتي لها في المرة الأولي . فإن المدنية الفرنسية قد صيرت بلاد الجزائر زينة البلدان وجعلتها قطعة من أرض فرنسا نفسها . وزاد عدد الجزائريين زيادة محسوسة بين الأمم الأخرى .

ينقسم الجزائريون إلى طبقتين كبيرتين متميزتين بعضهما عن بعض من حيث الهندام والعادات والمركز الاجتماعي . فالطبقة الأولى منهم تسكن المدن العظيمة، والأخرى تسكن الأرياف . والأولي تتكون من الجنس التركي والموري والعبيد واليهود ، بينما تتكون الأخري من الجنس العربي الأصلي والقبائليين .

وهؤلاء الأخيرون من نسل النوميين مؤسسي البلاد ، وهم خليط همجي يتكون من جميع الأجناس ، وقد ملئت حياهم كلها نضالاً وجهادًا في دفع أعدائهم وصد هجماهم عنهم في كل وقت وحين، أما الأعراب وهم نسل الفاتحين للبلاد الأفريقية فيسكنون السهول بعيدًا عن شواطئ البحار ، ويزرعون الأراضي الرحبة ، ويعنون بتربية الأغنام . ومنهم مَن يسكن الخيام ويعيش عيشة المهاجرين وهم الملقبون بالبدو . والفرق واضح بين هؤلاء وأولئك . ورجال الدين منهم والعسكريون يشغلون الصف الأول لكل قبيلة منهم، ورجال الدين وأئمته هم أناس مشتغلون على الدوام بإقامة الشعائر الدينية والخشوع إلى الله تعالى في جميع حركاهم وسكناهم وفي أي مجلس وجدوا فيه . وهم يمتازون كثيرًا عن الآخرين في نظر الشعب بالورع والصلاح والتمسك بالفضيلة الكاملة، فيحتفل بتشييع جنازاهم بأكمل أنواع الوقار والاعتبار، وتقام على قبورهم الهياكل المشيدة المزركشة بالنقوش العربية الجميلة والآيات المقدسة، وتزار في أيام الجمعة والأعياد توسلا ببركتهم وترحمًا عليهم. وكل قبيلة من العرب يتولى إدارة شئوها شيخ عظيم الجاه يعرف بينهم بالبطش والذكاء . وكل قبيلة منهم مستقلة أستقلالاً تامًّا لا علاقة لواحدة منها بالأخرى . وكثيرًا ما

يختصمون فيما بينهم وتقع بينهم المعارك العنيفة غير أن مدة النزاع لا تدوم طويلاً . أما عن كيفية قتالهم فإن لهم طرقًا خاصة، فهم يمتطون متن الخيل ويحملون بأيديهم البنادق الطويلة ويضعون في أحزمتهم الطبنجات وغيرها من الأسلحة التي يعرفون كيفية استعمالها بمهارة تدهش العقول وتفوق الوصف كأنهم يتلقونها في مدارس خاصة بها .

ومن أسلحتهم السيوف الطويلة التي يسمونها – الياتاجان – والتي يقطعون بها رؤوس أعدائهم حتى يفصلوها عن أبدانهم ويحملونها على أسنتها رمزًا للفوز والنصر المبين . وهؤلاء القوم كثيرون في بلاد الجزائر وقد هاجروا إليها في عهد تخريب أورشليم على يد " تونوس"

هذا والديانة المحمدية الغراء تنشر ألويتها في جميع البقاع العربية ولهم فيها اعتقاد راسخ وعقيدة متينة لا تتزعزع غير أنهم يحترمون الديانات الأخرى ويحترمون معتنقيها ويدَعون كلاً على اعتقاده دون أن يمسوه بسوء بل يحافظون على مصلحته محافظتهم على مصلحتهم.

يلوح لي أنني قد اعتديت على راحتكما بإطالة حديث لا يخفي عنكما مضمونه، وإنكما شابان متعلمان قد أحطتما علمًا بتاريخ

الشعوب سيما بلاد الجزائر .

فبلاد الجزائر طقسها معتدل صحي جميل وسماؤها صافية لا يغطيها السحاب إلا يومًا أو بعض يوم . وذلك راجع إلى ارتفاع أراضيها وموقعها الجغرافي الجميل الذي دفع فرنسا إلى أن تنفق في سبيله كل مرتخص وغالٍ .

ويعجبني في بلاد الجزائر تعاقب الفصول مع اعتدال طبيعتها فمن شهر أبريل إلى شهر أكتوبر لا يشوه بهاء سمائها سحاب ولا ضباب . غير أنه في الشتاء تسبب الرياح الشمالية بعض العواصف وأنها وأن تكن شديدة إلا أنها محتملة ولا تلبث أن تنقشع بسلام .

ولقد سببت زيارتي لهذه البلاد أشأم العواقب . فإن وباء فتاكًا قد أودى بحياة الكثيرين من العباد ، ثم ظهرت بهم أيضا الحمى التيفوسية ففتكت بالناس فتكًا ذريعًا حتى كانوا يحملون الموتى من الطرقات بعضهم فوق بعض ، فكان يؤلمني أن أرى مثل هذه المناظر لعلمي أن هذه النكبات الفادحة من جراء قدومي إلى هذا البلد الأمين.

يا لعظم ذنبي، ويا لشقاء قوم وطئت قدماي أرضهم !! هل شاءت إرادته تعالى أن يشرك في عقابي جميع الناس ويحمّلهم معي

ثقل جرم لم يرتكبه أحد غيري ؟؟ ذلك ما كانت تحدثني به نفسي إذ كنت أضرب جبهتي بيدي أسفًا وحرقة فكنت أسمع من وقت لآخر صوتًا يناديني : ألا لعنة الله يا إسحاق .. سر.. سر في طريقك صحبتك الآلام والأمراض، وكتب على قدميك الخراب والدمار. فبادرت بمغادرة تلك الديار رحمة بأهلها .

الرحلة السادسة
(البلاد الإيطالية)

وصلت إلى روما للمرة الثانية فإذا هي قد أخذت رونقًا جميلاً يسر الناظرين . وسادت فيها الديانات السماوية بين أرجاء البلاد، غير أن المسيحيين كانوا مضطهدين كثيرًا فيها . فإنه لما قامت تلك الديانة الجديدة فوق أنقاض الخرافات السابقة اعتنقها البعض وسخر منها البعض الآخر، فكان المسيحيون لا يجرؤون على إقامة شعائرهم علنًا بل كانوا يلجأون إلى الكهوف والمغارات، وكانوا يهاجَمون في كل مكان رغم حيطتهم العظيمة ومبالغتهم في الاختفاء عن أعين الرقباء . ويالله ما أقسى وأفظع العقوبات التي كانوا يلقونها من حكام البلاد أعدائهم في العقيدة الدينية مما شاهدته بنفسي .

كنت خارجًا من رومًا مقهورًا رغم ميلي الشديد للبقاء فيها أكثر من ثلاثة أيام ، فطفقت أعدو في خلواتها وجبالها وجمهورها حتى وجدتني على مقربة من ساحة كبيرة ، فسمعت ضجة وصياحا أوقفني عن السير وإذا هو صوت جماعة من الناس يرتلون

أناشيد الصلاة فدهشت كثيرًا إذ كان الصوت آتيًا من تحت الأرض، فاهتممت بالأمر ورغبت في اكتشاف سرهم .

كنت في هذا المكان منفردًا والسكون سائد في جميع أرجائه فاقتربت من موضع الصوت فتجلى لي بوضوح صوت هؤلاء العباد، فتقدمت إلى فوهة دخلت منها وأخذت أقترب شيئًا فشيئًا من جماعة المصلين مسترشدًا بنور ضئيل يزداد سطوعًا كلما ازددت اقترابًا منه، إلى أن أبصرت عددًا ليس بقليل من الرجال والنساء والأطفال فلم يشعروا إلا وأنا واقف فوق رؤوسهم ففزعوا جميعًا لرؤيتي على هذه الصورة وكفوا عن النشيد مرة واحدة .

وكان على رأسهم قسيس عظيم الهيئة يخطب فيهم بين بريق الشموع الضئيلة فارتعدت فرائصه من طلعتي ودنا مني بخوف وقال بصوت خافت: مَن تكون أيها الرجل ؟ أأنت ممن يعبدون ما نعبد ؟ أم أنت ممن يضطهدوننا حيث وجدنا؟ فأهلاً وسهلا بقدومك أيها الضيف الكريم سواء كنتَ صديقًا أو عدوًّا . ونحن لا نعادي أحدًا ولا نبغض مخلوقًا ، سواء شاركنا في العبادة أم كان من الساخرين .

فأجبته : إني لست بالعدو ولا بالصديق ، ومعذرة إن كنت قد

اعتديت على راحتكم أو عكرت صفوكم . وحذار أن يتبادر إلى ظنكم أني من مضطهديكم بل أنا مذنب سيء الحظ هائم على وجهي ليلاً ونهارًا جزاء بما كسبت يداي . فأسألكم الدعوات الصالحات .

وما كدت أتم حديثي معه حتى سمعتُ ضوضاء كبيرة يتخللها صلصلة السلاح والأغلال آتية من الخارج، فهرع القوم كلهم وهاجوا وماجوا عند ذلك ، فصاح في الناس قسيس : اثبتوا جميعا فإن الله معنا . هؤلاء هم مضطهدونا فنسأل الله السلامة من شرهم، وما أتمها حتى أقبل رجل عظيم الهيئة تحيط به الجنود من اليمين ومن الشمال وهو يصيح بصوت جهوري: ويحكم أيها الأشقياء !! يا لكم من عصاة متمردين . أتجرؤون على عقد هذه الاجتماعات رغم تحريمها عليكم وتشديد الإمبراطور في منعها بتاتًا من أرضه . ثم حوّل وجهه نحو جنده وقال : أمسكوا بهؤلاء اللئام وأوثقوهم وليكن الموت عقابًا لهم على خيانتهم . فوثب الجند لساعتهم وأوثقوهم بأغلال من حديد وهم صاغرون لا يبدون تلقاء ذلك أدنى مقاومة، ولما تم القبض عليهم جميعا بين ولولة النساء وبكاء الأطفال تقدم نحوي أحد الجنود وقال لي بخشونة : مَن أنت أيها الشيخ ؟ ثم تفرس في هندامي وما أنا عليه وقال :

يظهر لي أنك لست من جماعة هؤلاء المارقين رغم وقوفك بجانبهم ولعلك من المخلصين للإمبراطورية فصرِّح لنا بحقيقة أمرك .

فقلت له لست مسيحيًّا ولا أنا من أهل الرومان . وما الذي يهمك من أمري ؟ إنني ممن لا ينسبون إلى أحد سوى الله . عند ذلك صاح زعيمهم : شدوا وثاق هذا الرجل . فلو لم يكن من أنصار هؤلاء الخونة لما وُجد بينهم. فرد عليه القسيس : لقد أخطأت الظن يا سيدي فليس هذا الرجل من حزبنا ، وأن كنا نحن مذنبين فما هو إلا رجل بريء . فقال الزعيم ثانية : شدوا وثاقه فلن تفلتوا جميعًا من العقاب الشديد مهما تخفيتم بالثياب الأجنبية . لقد أدركت كل مآربكم فلا ريب أنه أحد قسيسيكم الذين يبشرون بديانتكم تحت ثياب التنكر .

هنالك أمسكوا بي وشرعوا في شد وثاقي لولا أني سمعت صوتًا سماويًا يناديني : يا إسحاق ... سر ... سر ... سر ... سر في طريقك ولتكن على الدوام ملعونًا . ثم شعرت بقوة فوق قوتي تدفعني إلى الأمام وقد امتقع لون ذلك الزعيم وجنوده وصاحوا صيحة الوجل والرعب : من أنت أيها الأجنبي ؟ وما هي هذه العلامات التي ظهرت للساعة فوق جبينك ؟ وما هو سر هذه الكلمة المكتوبة بحروف من نار فوق رأسك ؟!

فرفعتُ رأسي وإذا بثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف نارية هذه الكلمة " الجمجمة " ، فالتفتُّ إلى كبيرهم هذا وقلت له: أنت تسألني مَن أنا ، فأجيبك أنني رجل ملعون وهذه العلامات التي تشاهدها أمامك والكلمة المكتوبة بحروف من نار هي عقاب لي من قبل الله يذكرني بها جريمتي العظيمة والمكان الذي ارتكبتها فيه . وكلمة " الجمجمة " هذه هي اسم المكان الذي كنت أقيم فيه والذي اعتديتُ فيه على المسيح بالخشونة والجفاء . . أتدري أيضًا من أنا ؟ أنا الرجل القاسي الذي أبى الماء على المسيح وهو إذ ذاك في ظمأ شديد، وأبيت عليه الجلوس قليلاً بجانب داري ليريح جسمه التعب، وأنا الرجل الذي قضي على أن أعيش إلى يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه .

ثم حوّلت وجهي نحو الجنود لأقول لهم كلمة ففروا جميعهم من أمامي وجلين تاركين أسراهم وزعيمهم معاً وقد وقف هذا الأخير باهتًا مذهو يسمع مني كل ذلك دون أن ينبس ببنت شفة وركبه تصطك رهبة وخوفًا إذ تركه جنوده دون أن يجد في نفسه قدرة على الصياح بهم ليأخذوا بيده من حرج الموقف .

فتناولت حسامه الطويل البراق واستخدمته في حلّ قيود هؤلاء الأسرى المساكين الذين كانوا ينظرون إلى كل ذلك بوجوه

عرقها صفرة الخوف والرعب وقد وقع بعضهم مغشيًّا عليه فلم أستطع البقاء كثيرًا أمامهم لأن قوة شديدة كانت تدفعني إلى السير، فلم أشعر إلا وأرجلي تعدو في رمال ووديان رغم إرادتي الشخصية . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وفي هذا الظلام الحالك المخيم في بقاع قفره كان يتلألأ أمام ناظري ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف من نار " الجمجمة " .

فارقت الأراضي الإيطالية ووجهتي بلاد الشرق علّي أرى بلادي التي فارقتها مطرودًا بعامل جريمتي الكبري جهلاً مني أنه قد قدر على ألاَّ أشاهدها إلى يوم تشخص فيه الأبصار، فكنت أتقدم سريعًا مسوقًا بقوة فوق القوة البشرية . وكنت كلما قربت المسافة أزداد بشرًا وارتياحًا لحلول أرض الوطن العزيز مع أنه لم يزدد شقائي إلا استفحالاً ولم تزدد تعاستي إلا شدة.

طففتُ أجدّ في السير حتي وجدت نفسي بسفح جبل طور سيناء فتسلقته حتى وصلتُ إلى أعلي جزء منه وإذا برجل من الناسكين في قيام وقعود وركوع وسجود وقد بنى له صومعة صغيرة ليعكف فيها على عبادة خالق الأكوان ، وهو إذ ذلك بين الأرض والسماء ، فانتظرت حتى أتم صلاته وقربت منه محيطًا إياه بتحية حيابي بأحسن منها بلا وجل ولاذعر. ثم أفسح لي مكانًا

بجانبه وأشار إلى بالجلوس فيه فلم أقدر فسألني السبب فكاشفته بسري وإذا هو رجل لين الجانب غزير العلم قد أحاط علمًا بسائر الموجودات وخواصها كأنه على اتصال بالله تعالى لما كمله به من العلم وجعله بحسن الخلق وطيبة النفس .

فلما آنست منه تلك السجايا الحميدة والعطف الجميل قلت له : كم تبلغ من العمر ؟ فلم يفكر طويلاً وأجابني : تسعون سنة وثمانية . وما كنت لأظنه بالغًا من العمر بأقل من ذلك لأنه كان رجلاً كبًارًا قوس الدهر ظهره وجعّد بشرة وجهه . وشاب شعر رأسه ولحيته حتى اصفر لونه ، غير أنه كان صحيح الجسم سليم العينين وضع فوق رأسه عمامة بيضاء وغطى جسمه برداء سميك يتكون من كثير من أنواع الخرق المختلفة الألوان والأجناس ، وكانت بيده سبحة حبها غليظ وبجانبها عدد ليس بقليل من الكتب القيمة الضخمة بعضها من الورق المكتوب وغير المكتوب .

قلت له : ماذا عسي أن تتضمنه كتبك هذه من العلوم ؟ فقال : أكثرها يبحث في علم الفلك الذي أميل كثيرًا إلى المطالعة فيه . وبعضها في بعض العلوم الدينية والتاريخية . قلت : وماذا تعني بالعلوم التاريخية ؟ قال : أقصد تاريخ العالم وتاريخ هذه الأرض التي نسكنها اليوم . قلت له: ألا تُسمعني شيئًا منه؟ فقال : أسمعك

بكل سرور ، فإليك بعضًا من تاريخ الأرض في هذا الكتاب . قال ذلك وحوّل وجهه إلى اليمين فتناول كتابًا ضخمًا ثم فتحه وقال " كان يعيش فوق هذه الكرة الأرضية التي نسكنها اليوم مخلوقات عجيبة من أنواع الوحوش الضارية وغيرها . ولا عجب لوحشيتها لأنها كانت شبيهة بالطبيعة التي كانت تحيط بها في ذلك العهد . فإن الطبقة التي كانت تعيش على سطحها اعتراها من التقلبات والتطورات صنوف شتى إلى أن تبدل الحال غير الحال وغمرت المياه أجزاء الأرض ، ثم بعد كثير من الأجيال التي لا عدد لها ولا حصر برزت الأجزاء اليابسة من بطون المحيطات فألبست ذلك الكوكب الأرضي لباسًا جديدًا . ثم تشققت تلك القشرة في كثير من الأصقاع وتكونت عليها القارات الشاسعة، ثم غاصت هذه القارات في أحضان البحار وعادت مرة أخرى فظهرت في أشكال غير التي كانت عليها ، وظلت كذلك بين الوجود تارو والعدم تارة أخرى تحت شمس ساطعة إلى أن شاء سلطان القرون والأجيال أن تكون على ما وصلت إليه من زخرف ونعيم وقصور وجنات ذات أفنان .

كم من الغابات الكثيفة التي ظلت تموج تحت أنفاس الريح العواصف قرونًا غمرتها المياه وقامت فوق أنقاضها طينة مترا كم

بعضها فوق بعض ثم ما لبثت أن تحجرت وانقلبت صخورًا كالجبال الراسيات وعاشت في خلالها أنواع كثيرة من الوحوش المختلفة الأجسام والألوان والتراكيب . تلك التي لبثت ثوب الوجود وعمرت أحقابًا بين التطورات والتغييرات في الأشباح مما لا نرى له نظيرًا إلا في الأحلام المزعجة .

كل هذا يجري فوق سطح الأرض التي نسكنها وهي كوكب يسبح في الفضاء محمول على يد القدرة الربانية العظيمة ، فيجري حول الشمس في ٣٦٥ يومًا وربع يوم . فهذه الأرض تجري في فضاء لا يحيط به عقل إنسان بواقع ٢٥٤٤٠٠٠ كيلو متر في اليوم الواحد . أو ١٠٦٠٠٠ كيلو متر في الساعة الواحدة أو ٢٩ كيلو مترًا في الثانية . وهو عدد لا يقرأ لمجرد القراءة فقط بل لإعمال الفكر فيه وتصوره إن كان تصوره ممكنًا . فنحن إذن تلقاء هذه العملية الحساسة الدقيقة نطوف في فضاء لا حدّ له ولا حصر بسرعة تفوق سرعة قطار الإكسبريس بنحو ١١٠٠ مرة .

فإذا سار قطار تتبعه سلحفاة ، وكان ذلك القطار أسرع منها بـــ ١١٠٠ مرة ، فكأنه إذا انطلق ذلك القطار في طلب الأرض أثناء جريانها كان مثله كمثل السلحفاة التي تجري في طلبه . وتلك سرعة تفوق سرعة القنبلة إذا خرجت من فوهة المدفع بـــ ١٥

مرة ، أعني بها سرعة الأرض التي نعيش على سطحها غير شاعرين بشيء من كل ذلك كما يعيش النمل في الصحاري . وهنا ينبغي للقارئ الكريم أن يسمح لنا إذا تمشينا معه في طريق الوهم والخيال ووقفنا به على مقربة من طريق الأرض ذلك الطريق السماوي الذي تسير فيه حول الشمس على شريطة أن يتمالك حواسه ويستجمع قواه البدنية والعقلية إذا رأى الأرض آتية من بعيد في شكل نجمة يزداد حجمها في الاتساع شيئًا فشيئًا حتى تصير قمرًا . ثم يتسع قرصها أيضًا حتى تصير قبة عظيمة إلى أن تملأ ما كان يراه أمامه من فضاء شاسع، وتنسل من أمامه كالبرق الخاطف إذا كان في الكون برق يمر بهذه السرعة . ثم تعود سيرتها الأولى في الصغر شيئًا فشيئًا حتى تختفي عن نظره .

فعلى هذه الألعوبة الجوية تعيش أمم عديدة ودول ذات سلطان وجبروت ينازع بعضها بعضًا ويسطو بعضها على بعض بما لها من أساطيل وجيوش . ومع ذلك فمثلهم كمثل حبات التراب الملتصق بقنبلة المدفع المقذوفة في الفضاء تدور معها حينما دارت غير شاعرة بتحركها مطلقًا إلا برؤية قنابل أخرى متناثرة في الفضاء مما لا تشاركها في حركتها ، نعني بها ما يمر فوق رؤوسنا في كل لحظة من شموس وأقمار وكواكب .

أما عن الموازنة بين الأرض والشمس فينبغي أن نتوهم بئرًا عمقها ١٢٠٠٠ كيلو مترًا لنعرف تمامًا قطر الأرض باعتبارها كرة . فيا له من جرم عظيم هائل يعجزنا تصوره بالنظر إلى أجرام أخرى مما نعدّها جسيمة في عيوننا كالجبال مثلاً التي نكون نحن وقصورنا أمامها شيئًا لا يذكر . ومع كل هذا فإن ذلك الجرم الهائل الذي نعاني كثيًرا في فهم حقيقته لا يعدّ شيئا مذكورًا في نظر الكون . ولنضعه فوق الشمس فقط ولا نقول فوق غيرها مما يفوق الشمس بكثير .

إذا نحن وضعنا الأرض فوق الشمس لما ملأت من فراغها بأكثر مما تملأ هضبة من فراغ الأرض . فكأنه يجب أن تعجن ١٤٠٠٠٠٠ كرة أرضية حتى نكون منها كرة في حجم الشمس. فإذا نحن دهشنا لفكرة الطواف حول الأرض فما ظنك بالطواف حول الشمس ؟! وإذا كانت الشمس كذلك فما قولك إذا سمعت أن في الفضاء أجرامًا تفوق جرم شمسك هذه بملايين الملايين . ألا فاعلموا أن الله على كل شيء قدير وأنه يحيي الموتى ويبعث مَن في القبور .

هنالك أتم العابد قراءة هذا الباب ثم سعل وبصق على الأرض خارج الصومعة وألتفت إليّ مبتسمًا وقال : هل تسمح لي أن

أسمعك شيئا من تاريخ الإنسان على الأرض ؟ فقلت : نعم ، فتلك معلومات هامة يحق لكل إنسان أن يكون على علم منها . ففتح الكتاب وقلب بعض الصفحات وقال:

لم يكن للنوع البشري القديم من مأوى سوى كهوف الجبال ومغاراتها وأجماتها وجحورها تخلصًا من فيضان المياه الغزيرة التي كانت تنهال عليه من كل صوب وكان لا يكاد يستوي فيها حتى تطارده البراكين بنيرانها الشديدة فتبيد البعض وينجو البعض الآخر بأن يفرّ من الجبال فرار النحل وهنالك تلتهمه أفواه الوحوش الضارية التي هي أقدر منه حيلة وأشد قوة .

هكذا كان الإنسان مضطهدًا في كل مكان من الأرض ، وهكذا كانت الطبيعة تحاربه بمياهها ونيرانها ووحوشها وحرها وبردها . وكان الإنسان في هذا العصر لايرتدي غير جلود الحيوانات التي كان يحتال في اقتناصها ليتخذ من لحمها طعامًا يقتات منه زيادة على أعشاب الغابات وثمرات الأشجار .

بعد ذلك فكر الإنسان منذ أن نشأ في أن يجتمع ويتآلف ليكون قوة يستطيع بها دفع أعدائه عنه من الحيوانات المفترسة التي كانت تستفيد من تفرق الناس أزواجًا وأفرادًا . وعند ذلك دعتهم الضرورة إلى إيجاد المسكن وساعدهم على إيجاده كثرة العدد .

وصاروا في مأمن من شر أعدائهم وتبادلوا المعونة فيما بينهم فاتخذوا من الأحجار أسلحة صنعوها على هيئة البلطات والمسامير الغليظة .

وفيما هم يشتغلون بصنعها كان الشرر يتطاير بين أيديهم فنشأت من هنا فكرة الاستفادة من النار في إنضاج الطعام . وتقدم الإنسان رويدًا رويدًا حتى عرف ما ينبغي عليه نحو نفسه وأبناء جنسه من التعاون والتضامن . الأمر الذي عجل بتميزه عن بقية الحيوانات تميزًا جوهريًّا .

سار الإنسان في طريق التقدم سيرًا سريعًا فأقام السدود ورص البنيان فتكاملت حاجياته اللازمة ، وتكونت من نوعه أمم كثيرة العدد فقسموا الأرض فيما بينهم وتبادلوا المساعدة في حرث الأرض وزرعها والاتجار في حبوبها ، وتأليف الحكومات ووضع النظام حتى صار الحال على ما يرام .

ثم طوى العابد الكتاب ونظر إلي بعد أن استجمع قوة بصره وقال : أرأيت كيف كان الأنسان في زمانه القديم يا إسحاق ؟ فقلت : ما أجمل سماع حديثك . وما أعجبه . وما أوسع اطلاعك . وإني لمغتبط بلقياك في هذا المكان فلقد سررت سرورًا وفائدة جمة . ولولا أني مقهور على مبارحتك لأمضيت في صحبتك بقية الليل.

وأستأذنك في الذهاب حاملاً لك بين لحمي ودمي تذكارًا متين الدعائم . آسفًا على فراقك وما طوقتني به من العطف الخالص . فأستودعك الله تعالى وأسألك الدعوات الصالحات .

فنهض من مكانه بخفة وترجل بجانبي على ضوء القمر الساطع بين الأحجار والهضاب والكهوف ، وزودني بحديث شهي ووعدني أنه مادام حيًّا في صومعته فلن يفتأ يذكرني بخير ، ويطلب لي الرحمة والرضوان والخلاص مما أنا فيه من آلام وأسقام ، حتى أثلج صدري وملأ جنبي طمأنينة وصبرًا جميلاً .

الرحلة السابعة
(أورشليم القدس)

نزلت الجبل ووجهتي أرض أورشليم وطني ومسقط رأسي، فلما صرت على مقربةَ منه أوقفتني قوة لا تقهر . فهممت بالتقدم فلم أفلح . ولا أستطيع وصف هذه القوة التي تغلبت على بدني فلم أعد أقوى على السير. وإنني لكذلك أذ سمعت صوتا يناديني قائلا : أرجع أيها المجرم الأثيم فقد قضي عليك ألا ترى هذه الأرض مرة أخرى وليس لمجرم مثلك أن يطأ بأقدامه الدنسة أرضًا مقدسة كانت ينبوع الديانات السماوية كلها ... سر... سر ... سر فلا وطن لك ولا عشيرة .

عند ذلك سقطتُ مغشيًّا عليّ من شدة التأثير ، وعمدتُ إلى صخرة مغطاة بالأعشاب فأسندت ظهري إليها مطرق الرأس خائر القوى لا حراك بي كما يقف المجرم بين يدي قاضٍ جبار شديد البأس ، فلما أفقت ورفعت عيني إلى السماء علني أجدد أنفاسي أبصرتُ فيها ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف من نار هذه الكلمة " الجمجمة ". فصحت : رباه !! رحماك !!

رحماك... إن نفسي تتوق إلى زيارة أرض وطني العزيز لأمتع ناظري برؤية مدينة ولدت تحت سمائها الصافية ونشأت فوق تربتها المسكية الجميلة .. والتي ماتت بها أختي كمدًا لبعدي عنها . وأحن إلى عتبة دار طالما انتظرتني عليها خطيبتي عبثًا وهي ذائبة القلب جريحة الكبد حسرة على فراقي .

وفاضت عيوني بالعبرات التى روت أعشاب الصخرة ، وكانت تلك أحرّ عبرات أرقتها منذ أيام عذابي . وسمعت في هذا الحين صوتًا يقول لي: إن هذه آخر العبرات التي تسكبها عيناك ، هي ولن تجف إلى الأبد، ولن تفتأ تبلل هذه الصخرة التي سيدعوها الناس بالصخرة الباكية ، وفي الواقع لا تزال هذه الصخرة الآن مبتلة يدعوها الناس بهذا الاسم ويمكنكما معرفة ذلك من قصص الشرقيين .

الرحلة الثامنة
(بغداد)

قمتُ بعد ذلك وقد تجددت قواي الجسمانية وقفلتُ راجعًا مصحوبًا بصوت يدوّي في أذاني دوي الجرس ليأمرني بالسير كلما وقفت هنيهة فسرت إلى الأمام دون أن أدري إلى أين تقودني قدماي ، وطفقتُ أجدّ في السير مخترقًا الغابات والأنهار والمجاري المائية والجداول والبحيرات متسلقًا الجبال الشامخات ليلاً ونهارًا تحت جو مكفهر تحيط به الزوابع والعواصف التي تقتلع الأشجار من أماكنها . فمررت ببلاد كثيرة دون أن أقف في طريقي خلافًا لعادتي في اكتشاف عادات الشعوب وأخلاقهم وأحوالهم ودياناتهم ، الأمر الذي يمثل سلواي الوحيدة على شقوتي وعذابي .

مر على هذا الحال عدد من السنين دون أن يتغير من أمري شيء يذكر إلى أن وجدتني ذات يوم تحت أسوار مدينة فخمة فيها قصور شامخات وحدائق سندسية وأنهار فاستوقفني جمالها ولم أجد بدًّا من الدخول في طرقاتها فإذا هي وحيدة عصرها في النظام

والتنسيق ، وبها حكومة من أقدر الحكومات وأكثرها جلالاً ووقار. وبها تجارة واسعة وحركة صناعية عظيمة . فعلمتُ حينئذ أن المقادير قد طوحت بي إلى زينة الدنيا بأكملها . وطفقتُ أقلبُ الطرف في جمال تلك المدينة متأملاً في وجوه سكانها الذين كانوا يغدون ويروحون تلوح عليهم طلائع البشر والإيمان الصحيح بما عليهم من لباس عربي جميل الصنع يطلق للبدن حريته الكافية ويمتعه بحركته الطبيعية . ففاض فؤادي فرحًا وغبطة وقادني حب الاستفسار إلى رجل كان قد وقف صدفة على مقربة مني وسألته في أي بلد نحن الآن من بلاد العالم ؟ فكبر عنده هذا السؤال وبصر بي كمن أخذته الدهشة وقال لي: ومن تكون أيها الأجنبي الذي تقوده قدماه إلى حيث لا يعرف المكان الذي قدم إليه ؟ ألم تسمع في حياتك بخبر مدينة بغداد الكبيرة تلك العاصمة الإسلامية العظيمة محطّ الشريعة السماوية المقدسة ومقر مولانا الخليفة الأعظم أمير المؤمنين هارون الرشيد ؟

وناهيكما بما عراني من الدهشة عند ذكر اسم بغداد إذ كنت كثيرًا ما سمعت بجمالها، ولا أظنكما تجهلان تاريخ هذه المدينة وما كان من أمر أمرائها وما لها من سطوة وملك واسع . ولا أخالكما تجهلان قصص الشرقيين وأمورهم أو تعلمان على الأقل كتابًا

شهيرًا في أقطار العالم يعرف بـــ " ألف ليلة وليلة " ، ذلك الكتاب الذي تتجلى فيه عادات الشرقيين وتقاليدهم وما وقع من عجائب أمراء بغداد وعظمتهم وسلطالهم ونفوذهم ونظام قصورهم محط الكرم والضيافة والواعدة ولين الجانب .

فلما أخذ فحدثني هذا يحدثني في كل مأخذ أجبته : عفوًا يا سيدي فما أنا بعائش تحت الأرض حتى أجهل اسم بغداد أو اسم أميرها الجليل خليفة المؤمنين هارون بن الرشيد . ومعذرة إذا قلت لك أني رجل بلا مأوي و لا مقر معروف . ولست بالرجل الذي يسعي إلى مكان معلوم ، بل أنا الذي قدر عليه السير إلى أي مكان من أرجاء العالم فأطأ في طريقي أرض كل مدينة دون أن أعرف لها اسمًا ولا رسمًا ألا إذا دخلتها .

فزاد كلامي هذا محدثي دهشة وعجبًا وأراد أن يخلو بي ليعرف ما ورائي من أمور الدنيا ويستطلع حقيقة حالي ثم قال :

ألا تسمح لي يا سيدي بشيء أكثر وضوحًا من خبرك حتى تريح خاطري من غرابة قصصك ؟ فأجبته : إنني رجل من الأشقياء التعساء المطرودين من رحمة الله المغضوب عليهم جزاء جرم جسيم ارتكبته في بادئ أيام حياتي ، فأصبحت من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

فلم يزده كل ذلك إلا رغبة في الوقوف على جلية الأمر فقال: أريد يا سيدي بربك أن تقصّ على شيئًا من تاريخ حياتك وما صادفته فيها . وأنا لست يا سيدي من عامة الشعب البغدادي رغم ما تراه عليّ من لباس أهله وإنما أنا من أحد ضباط حرس أمير المؤمنين الخليفة الأعظم هارون . ولم أرتد هذا الهندام إلا للتخفي وأنقل أخبار المدينة يوميًّا إلى مولانا الأمير ، فإذا تنفس الصباح عرج لسراي الخليفة وسل عني باسم " مسرور الضابط " فيسمحوا لك بالدخول على عجل لأنه يهمني كثيرًا أن نتحادث في شأنك .

فشكرت ذلك الضابط الوديع على لين جانبه ولطف حديثه ووعدته بالقدوم إليه في الزمان والمكان وقلتُ له : إنني لست في حاجة لقضاء شيء ولا أنا مضطر لأمر من أمور الدنيا ولكني منجذب بما طوقتني به من البشاشة وحلو المقأل . فمدّ إلى يده مصافحا وهو يقول : إلى غد ، إلى غد . واتخذ طريقا واسعا استمر في اجتيازه حتى غاب عن عيني .

كان الطقس في ذلك الحين بديعًا والسماء صافية والهواء عليلاً، وكان القمر يرسل أشعته الفضية فوق معالم المدينة وأشجارها وما فيها من جنات وعيون بما يخلب العقول ويبهر

الأنظار مما لا يتفق مع ما كنت فيه قبل قدومي من أجواء لا طاقة لإنسان بها .

كنت لا أزال والليل يسدل برقعه على وجه النهار والسماء تموج في حلة من اللالئ الوضاءة إذ مال ميزان الليل وأن للقمر أن يتواري عن الأبصار ، فترجلت بين أنحاء المدينة متفقدًا أحوال أهلها وعاقدًا نيتي على قضاء مدة الليل هكذا حتى ينبثق الفجر ويحل ميعادي مع " مسرور الضابط" .

بماذا أصفك يا بغداد ؟ ما أجملك وأحسنك في نظري ! تلك المدينة التاريخية العريقة في المجد التي أسسها أبو جعفر المنصور عام ٧٦٢ ميلادية فتقدمت في العلوم والفنون وتمت وفاقت في حسنها جميع العواصم الآسيوية . فان نهر دجلة العذب الجميل يقسمها قسمين كما يقسم نهر السين مدينة باريس ويصيرها كمدينتين مختلفتين في المراكز والعادات وسائر الوسائل المعيشية ، فإن أقدم جزء بمدينة بغداد هو الواقع على الضفة الشمالية للنهر . وفيه يقيم الفقراء بأكواخهم بين النخيل الكثيف والأشجار الضخمة مما يختلف اختلافا جوهريًا عن سكان القسم الآخر وهو الذي بناه الأمير ابن المنصور . وفيه يقوم قصر كبير هو من الآثار الفاخرة وكثير من المباني الشاهقة التي تستوقف الأنظار وتبهر الأبصار .

ولقد أسعدتني الظروف بزيارة قبر " زبيدة " ذات المقام الرفيع التي كانت قرة عين أمير المؤمنين هارون وزينة قصره المنيف . تلك التي فاقت نساء عصرها وأوانها في الحسن والجمال . ويعجبني في بغداد سعة طرقاتها ونسق مبانيها ونظام أسواقها وحركة صناعتها وتجارتها المتبادلة مع بلاد الفرس والعرب والتركستان والهند وكثير من الأقطار الأخرى . وفيها البوليس يقظ منظم على أحسن حال مما يناسب أرقى البلاد وأكثرها مدنية وحضارة . والأجانب يعيشون فيها في أمان وطمأنينة وكرم عظيم من جانب أهلها ذوي الشمائل العربية المجيدة . وفيها عدد قليل من المسيحيين الذين يقيمون آمنين مطمئنين بين إخوانهم المسلمين الذين يحسنون معاملتهم كإخوان في الوطن والجنسية ، وبها أيضًا عدد عديد من اليهود الذين يقيمون بمعزل عن سواهم من سائر طبقات الشعب وذلك بمحض إرادتهم وميلهم الطبيعي .

طقس بغداد صحي مقبول إلا أنه في بعض الأحيان يشتد الحر فيترح أناس إلى أعلى المنازل طلبًا للهواء والراحة من حر الهجير .

ولنعد بكما إلى الحديث الذي كنا فيه قبلاً فقد قلت لكما إنني طفقت أجوس خلال الديار حتى يتنفس الصباح ليتم فيه الوفاء بالوعد بيني وبين " مسرور الضابط " ، فلما اقتربت الساعة

قصدت قصر الخليفة وما هي إلا لحظة حتى رأيتني أمام قصر عظيم الشأن يحيط به الجنود ذات اليمين وذات الشمال . فأقبلت على أحد الحراس أسأله عن مسرور الضابط فما كدت أذكر اسم مسرور حتى انحنى أمامى إجلالاً وإكبارًا ثم غادرني مسرعًا وأتى بإشارة إلى حارس آخر فذهب هذا الأخير إلى داخل القصر ثم عاد نحو الحارس الأول فأسر إليه حديثًا ثم أشار إليّ باتباعه فتبعته حتى وصل إلى ساحة فسيحة الأرجاء تؤدي إلى فناء رحب فرش بالرخام الناصع البياض الذي ينعكس على وجهه ظل مَن مر عليه . تقوم في وسطه أعمدة من المرمر البلوري البديع وفيه من أنواع المصنوعات العربية والزخرف ما يذهل العقول والألباب مما لم أر مثله في حياتي .

سرنا بين البريق والنقش وخرير المياه التي كانت تتدفق من أفواه السباع الرخامية الجميلة الوضع الأنيقة الصنع حتى اخترقنا الفناء الهائل وصعدنا سلمًا واسعًا صنع من أنواع المرمر المنقوش الذي يرى فيه الصاعد وجهه كما يراه في مرآة من البلور ثم وصلنا إلى ساحة رحبة ذهبية اللون كتب على جوانبها آيات بحروف من ذهب. ويقوم في وسطها تمثال مهيب يمثل خليفة المسلمين جالسًا بما عليه من لباس عربي وعلي رأسه تاج مرصع

بأنواع الياقوت والأحجار الكريمة . وعليه من الجلال والوقار ما يرهب قلب المارّ بجانبه .

ثم انعطفنا يمينًا إلى ردهة أخرى عريضة قطعناها في بريق المرمر اللماع والذهب الوهاج والجواهر الكريمة التي يتصور فيها الإنسان منتهى نعيم الدنيا مما صنعته يد الإنسان في الحياة . وصفوة القول فإن هناك أقصى ما وصل إليه متاع البشر ورغد العيش .

هنالك حل ميعاد قيام الأمير ، فدوّى القصر دويًا هائلاً إيذانا بقدومه فكنتما تريان الخدم الحسان في غدوّ ورواح . يحملون الأواني الفضية والأوعية الذهبية التي يذهب بريقها بالأبصار . وفي الحال أقبل الوزراء والعظماء ووجهاء الأمة . ورجال الدولة ورجال المعية في قيام وقعود ونزول وصعود انتظارًا القدوم الخليفة وعقد مجلس الوزراء تحت رياسته .

فكنتُ أشعر كأنني في حلم لذيذ فلم أتمالك أن همست بأذن مرشدي هذا : هل لي يا سيدي أن أرى مسرور الضابط قبل قدوم الخليفة ؟ فهز رأسه مشيرًا لي بالانتظار ثم انثنى وعمد إلى باب سري دخله مختفيًا تحت ستار من الحرير الأخضر المزركش بالقصب الأصفر الذهبي الثمين . وما كدت أتمّ النظر في جمال ذلك الستار حتى برز منه وأشار لي بالدخول ، فترجلت نحوه حتى

إذا ما صرت داخل المكان أوصدوا الباب من خلفي فبهر ناظري ما رأيت من زخرف . فعمد مذهبة تعلوها تماثيل فاخرة الصنع ، وزهور على مختلف الألوان والأشكال في أوعية من الذهب تارة ومن الفضة أخرى ، ومياه تتدفق من أفواه المضخات الفضية وأفواه التماثيل الرخامية التي نقشت على شكل الأسود والنسور والتماسيح تصب في حياض المرمر ذات اللون البلوري الجميل الذي تخجل العين أن تطيل النظر فيه وفي مشاهدة معانيه ، ورأيت عرشها مهيبًا ملؤه الجلال والوقار تحيط به جنود من أجمل ما خلق الرحمن وصور مهندمين بأنواع الحرير المزركش بالذهب والفضة مما يفتن ملائكة السماء .

وقد جلس فوق هذا العرش رجل عظيم الطلعة ذو هيبة تهز القلوب هزًّا فلم أشك في أنه خليفة المسلمين هارون . فلما مثلت بين يديه انحنيت أمامه إجلالا واعتبارا فصاح بي قائلاً : أقترب اقترب أيها الأجنبي . فعرتني الدهشة عند سماع صوته إذ خيل إلى أني أعرف ذلك الصوت ، ولم تكن أول مرة سمعته فيها بل هو صوت مسرور الضابط بعينه الذي استوقفته بالأمس في شوارع المدينة .

قال لي بصوت جهوري اقترب اقترب .. ألا تريد مسرور

الضابط الذي وعدته بمقابلتك في هذا القصر ؟ فها أنا ذا مسرور الضابط أو إن شئت فقل هارون . فكان لكلامه هذا وقْع في نفسي أشدّ من قصف الرعد . ثم رجعت إلى نفسي أذكرها علّي أكون في منام أو عراني من الأوهام ما خلب نظري وصوّر لي كل هذه التصورات . فتقدمت قليلاً نحوه دون أن أقوي على رفع نظري في وجهه من شدة الرهبة والوجل . ثم عاد فقال : لا تعجب أيها الأجنبي مما تراه اليوم ورأيته بالأمس فمن عادتي الخروج ليلاً في ثياب التخفي لأقف بنفسي على أحوال شعبي بمثل ما رأيته مني في الليلة السابقة إذ إنني أهتم كثيرًا بكل ما يجري في المدينة من أمور الأهالي والأجانب فأحيط علمًا بأخلاقهم وعاداتهم . فعليك إذن تلقاء هذه الرغبة أن تجيبني بصراحة كاملة عمن تكون أنت وفي أي بلدة ولدت والغرض الذي من أجله قدمت إلى بلادنا .

فلم أجرؤ على إجابته وأطرقتُ برأسي خشية وحياءً ثم أقبلت على أعتاب عرشه العظيم فقبلتها متوسلاً وجمدتُ في موقفي هذا جمود الأثيم بين يدي القاضي الجبار .

وعند ذلك دار في خلدي أنه لا مناص من إجابته عن سؤاله مادام مصرًا على اكتشاف حقيقتي فقلت له : أعز الله أمير المؤمنين

وأيده ، أنا رجل لا وطن لي ولا مأوى بل تعس مسكين . فعقد الأمير حاجبيه دهشة لكلامي ثم قال : ماذا تقول وماذا عسى أن نفهم من كلامك ؟ تكلم ولا تخش شيئًا فإني آمرك بالكلام الصريح عما يبين لي حقيقة أمرك . فارتعدت عند ذلك فرائصي وقلت له : إنني يا مولاي لا أرغب في إخفاء شيء من أمري فأنا ملعون قضي على بالسير ليلاً ونهارًا من يوم أن غادرت مدينة أورشليم . فهاك ثمانمائة عام مضت عليّ إلى الآن تجرعت في خلالها آلامًا مختلفة في اجتياز الصحاري وتسلق الجبال وخوض البحار . إسمي إسحاق الأقدم، ولدت بأورشليم عام ٣٩٩٠ لخلق العالم قبل المسيح ، وقد شاءت المقادير الإلهية أن أعيش حتى الآن وأقاسي كل هذه النكبات من أجل جرم اقترفته ، وبيان ذلك أنني أبيت الماء على المسيح وهو إذ ذاك في ظمأ شديد .

وما كدتُ أتمم ذاك أمامه حتى زجر الأمير وقام من مكانه مغضبًا وهو يقول : ما معنى كل هذه الخزعبلات الباطلة ؟ وماذا تريد بذكر هذه الأقوال الخرافية أيها الرجل ؟ أجئتَ إلى بلادنا لنشر هذه الخرافات والترهات ؟ ! أبلغت بك الجرأة إلى درجة إتيان هذه الخرافات أمامي ؟ خذوه وزجوه في غياهب السجون حتى يفصل في أمره .

وما جاء عليها حتى وثب على عدد كبير من الجنود الأشداء وشدوا وثاقي وأخرجوني من حضرة الخليفة مكبلاً بالأغلال تحيط بي الجنود والخدم حتى أودعوني سجنًا ضيقًّا رطبًا مظلمًا يكاد يكون تحت الأرض ، ووكلوا بحراستي جنديًّا شديد البأس ، فما كاد هذا الأخير يوصد الباب حتى اندلع في السجن بريق شديد الضوء بدد ظلامه تبديدًا وسمعت صوتًا سماويًّا يناديني : يا إسحاق ألا تعلم أنه محرم عليك البقاء في مكان واحد؟ سر... سر... سر ... في طريقك دون أن تقف وسرعان ما وجدت نفسي حرًّا وسقطت الأغلال الحديدية من يدي وقدمي كأنها كانت من عجين ومددت يدي لفتح باب السجن فكان الباب أسبق من يدي إلى فتحه وخرجت فصرخ الجنود فزعًا لرؤيتي وعلا الصياح والعويل من الخوف والرعب دون أن يقدم أحد منهم على اعتراض طريقي بل كانوا يجتهدون في الفرار والالتجاء إلى الغرف وصعود الدرج فاخترقت ردهات الرحبة، وكنت كلما مررت بأحد من الخدم أو الجندا متقع لونه وصاح مستغيثًا حتى وصلت إلى باب القصر فلما رآني الحارس سقط السلاح من يده وانطرح على الأرض مغشيًّا عليه . فلم أحفل بكل ذلك بل سرت كأنني شبح الموت مخترقًا شوارع المدينة في يوم شديد الريح حتى اخترقتها والرياح تداعب لحيتي الطويلة .

لم أقطع في حياتي من المسافات في زمن يسير بنسبة ما قطعت في مبارحتي لمدينة بغداد حتى خيل لي أنني إنما كنت محمولاً على جناح الهواء وأن الأرض تنطوي تحت قدمي طيًّا وأنا مع ذلك سائر على غير هدى لا أدري لمسيري هذا من غاية ولا نهاية، فأخذت أخترق المدن والقري والناس يهرعون لرؤيتي كأنني حيوان مفترس .

بعد مسير طويل وعقبات شديدة صادفتها تحولت بي دفة المقادير إلى بلاد الفرس فما أشعر إلا وأنا تحت جدران مدينة طهران، واتفق دخولي اياها في غروب الشمس وأنا لا أعرف فيها دارًا ولا ديارًا . فأخذت أتفقد حال أهلها فذكرتني بعض جهات فيها ببلاد الجزائر فإن أهلها يلبسون لباسًا واسعًا ويتعممون مثلهم.

لم أستطع البقاء كثيرا في بلاد الفرس لأن جوها كان ثقيلاً على صدري بل مكثت فيها ليلة واحدة رأيت فيها شيئًا كثيرًا من خرافاتهم الدينية .

فحوالى منتصف الليل تقريبًا خرج أهالي المدينة في شوارعها حاملين السيوف وهم يلطمون بها رءوسهم والدماء تتدفق منها على أبدانهم حتى تغطيها . وأمامهم المصابيح والشموع وكلهم

يصيح : يا حسين.. يا حسين تحيط بهم رجال البوليس وتفسح لهم الطريق .

مكثت ليلتي فيها على ما كان يمر أمام عيني من هذه المناظر حتى أشرقت الشمس وأنا أعدو خارج المدينة بين الغابات والآجام حتى وصلت إلى المحيطات العظمى فأخذت في اختراقها على سماع صوت البحارين الذين كانوا يصيحون دهشة لرؤية مخلوق من البشر يخوض محيطًا على هذه الصورة وظن بعضهم أني كنت غريقًا فحاول إدناء سفينته مني لإنقاذي فلم أجبه إلى طلبه حتى كان يعجب مني عجبًا عظيمًا ولا أدري كم من السنين مضت على في البقاء على هذه الحالة . إذ كنت كمن به جنة لا أعرف لنفسي سبيلا أسلكه ولا أحصي للأيام عددًا وكنت كلما تقدمت زاد البرد شدة وعصفت الرياح وهطلت الأمطار الغزيرة وتساقطت الثلوج حتى كنت أشعر بعد خروجي من البحر أن الأرض تهتز تحت أقدامي .

أين طوحت بي المقادير ؟ إلى القطب المتجمد الشمالي، وهي بقاع لا يعيش فيها النوع الإنساني، فأخذت أصعد شبرًا وأهبط مترًا بين الصخور والهضاب وأقلب النظر حولي فلا أري إلا وحوشًا ضارية من عجائب المخلوقات وغرائبها ، فمنها حيوان

عجيب الخلقة خرج من جحره بغتة ووقف أمامي شاخصًا فلا هو بقادم إلي ولا براجع إلى وكره . وكأنه يعجب لخلقتي بمقدار ما أعجب لخلقته . له قرنان غليظان يقومان فوق رأسه ، وساعدان قويان يبطش بهما على الأرض فينتثر الحصى ويغوصان في الطين. وجعل يهز رأسه تارة وذنبه أخرى ، وما فتئ ينظر إلي حتى غبت عن نظره وغاب عن نظري وعندها سمعت له صوتًا يصمّ الآذان .

طفت بعد ذلك أرجاء المعمورة ومضت على هذه الحال أعوام عديدة إلى أن وطئت قدماي الأرض الفرنسية، وكان من جراء قدومي إليها أن حل بأهلها القحط الشديد والفقر المدقع وفيما هم عليه من هذه الأحوال كان الناس يظنون أنه آن وقت قيام الساعة وانطوي بساط الحياة الإنسانية فكان ذلك يريح ضميري ويطمئن خاطري لتنتهي مدة عذابي الذي أقاسيه في كل مكان . وبعد قضاء زمن يسير بهذه البلاد بارحت مدينة باريس متجهًا نحو البحر مخترقًا حقول (نورماندا) وبراريها ووديانها وسهولها . واتفق أن صادفت في طريقي جيشًا جرارًا تحت قيادة ضابط عظيم أحاط بي الجنود من كل صوب حتى كنت في موج من الأسنّة والرماح والبنادق ، ثم تقدم القائد نحوي وقال لي : قف أيها الرجل ولا تخطُ خطوة من مكانك . أأنت تاجر قدمت من باريس أم ماذا ؟ فقلت: لا والله ما

أنا بتاجر ولا صانع . فقال: إن النكران لا يجديك نفعًا . وعليك أن تسلمني ما تملك من مال ومتاع . قلت له وماذا يكون حالي عندكم إذا كنت لا أملك مالاً ولا متاعًا ؟ دعوني أسير في طريقي فما أنا إلا رجل تعس عافاكم الله من شري. قال: ومن أنت حتى تستطيع أن تُلحق بنا شرًّا ؟ ألا زلت مصرًّا على الكتمان ؟ مهلاً حتى أذيقك عاقبة هذا المكر والخداع .. ثم نزل عن جواده وأقبل على ليفتش ثيابي ويأخذ ما عساه يجده فيها .

تعلمان أنه كان من نصيبي أن أملك على الدوام خمسة ليرات أخرجها من جيبي الوحيد حتى إذا ما خرجت حل في مكانها خمسة أخرى . فلما أراد القائد أخذ ما معي من النقود أخرجت له تلك القيمة وسلمتها إليه قائلاً : هاك يا سيدي كل ثروتي فإني لا أملك أكثر منها . فلم يصدقني ووضع يده بنفسه في جيبي فأخرج منه خمسة أخرى وقال ك ما أكذبك وأنت شيخ أشيب . فقلت له اعلم يا سيدي أنه لا يمكن لجيبي أن يتضمن أكثر من هذه القيمة لكنه بمجرد خروجها منه تحل محلها في الحال قيمة مثلها . فيمكنك إذن أن تخرج هذه القيمة من جيبي مرات عديدة ما دمت لا تمل ولا تيأس ، فأضحكه كلامي هذا حتى استلقي على قفاه وقال : من أنت حتى تكون كذلك ، أرأيتنا أطفالاً في نظرك حتى تقول

أمثال هذه الخرافات ؟ أفرغ لنا جيوبك وإلا صلبناك في جذع هذه النخلة .

كان القائد المسكين يظن أن بجيبي كثير من المال لأنه كلما وضع يده وجد نقودًا .

غير التي أخذها لكنه ما لبث أن تملكه الرعب والفزع عندما تحقق صدق قولي ولاحظ حقيقة أن القيمة تجدد كلما أخرجها فما أشعر إلا والقائد قد ألقى كل ما جمعه من النقود على الأرض وجرى من أمامي مرعوبًا وهو يعوي عواء الذئب فتبعه بعض الجنود وأطلق على البعض الآخر بنادقهم فلم يصبني شيء منها بل غادرتهم جميعا وهم يولولون قائلين : الساحر .. الساحر .

بعد ترك القائد وجيشه تعمقت في الحقول والسهول فكان الطقس في ذلك الحين معتدلاً والطبيعة غاية في الجمال يخيم عليها لواء الهدوء والسكينة فواصلت السير إلى الأمام دون أن ألوي على شيء في طريقي فاقتحمت بلادًا كثيرة وعبرت بحارًا واخترقت صحاري فسيحة وتسلقت جبالاً شامخة إلى أن وجدت نفسي في بلاد الهند .

فما أجمل بلاد الهند وما أحسنها وما أصفى سماءها وأعذب ماءها وأخصب تربتها وأغزر عشبها . وما أوسع تجارتها وصناعتها

وزراعتها . كنت منجذبًا بكل ما يقع نظري عليه ، وكثيرًا ما طفت في أرضها هائمًا على وجهي بين غاباتها الحافلة بالوحوش الكواسر كالنمور والفهود والذئاب وتجولت كذلك في أنحاء المدن متفقدًا عادات أهلها وأحوالهم المعيشية، فأدهشني في تلك البلاد عقائدها الدينية . كان بالهند ولا يزال موجودًا إلى الآن ديانتان مختلفتان كل الاختلاف : البوذية ، والإبراهيمية. فالبوذية تنسب إلى (سيدارتا) وهو فتى من الأسرة المالكة زهد العالم وعكف على العبادة منعزلاً عن سائر العالم فلقبوه من ذلك العهد باسم (كاكياموني) أي عابد (كاكياس) ، وهو اسم الجنس الذي ينسب إليه . فلما وصل إلى حالة التقوى والورع لقب باسم (بوذا) التي معناها باللغة الهندية " العصامي " ومنها سميت عقيدته بالبوذية .

وكان يبذل كل مواهبه في التمشي مع قومه في الطريق السوي عاملاً على انتشالهم من وهدة الجهل والعادات الباطلة ، وكان يسعى جهده في بث روح المساواة بين الناس والوقوف بهم أمام الله في صف واحد . وكان يقول إن عقيدتي هي قانون العطف على الجميع وغياث المستغيثين . والبوذيون والإبراهيميون على طرفي نقيض لأن الديانة الإبراهيمية ليست إلا مجموع قواعد

خرافية وأباطيل وهمية أسست على التطرف والطيش والتخبط في ظلمات الجهل على غير هدى ولا رشد . ولأذكر لكما شيئا من القواعد الخرافية التي تقوم عليها أركان هذه الديانة التي كثيرًا ما كانت مرمى نظري في تلك البلاد . فهي على زعمهم عبارة عن أقنوم ثالوثي في الأصل وعلي جبل الذهب تقوم " كيلووا " وهو اسم الشجرة التي تتضمن الينبوع الثلاثي لآلهتهم أو معبوداتهم وهي التي تدبر جميع الأمور الدنيوية. ومن هذه الألهة الثلاثة (لانجام) وهو الأبدي عندهم الذي اتخذ هذه الشجرة مقامًا له . ولهذه الشجرة ثلاث قشور . الأولى (براهما) والثانية (فيشنو) والثالثة (سيفا) فلما انتزعت هذه القشور الثلاث لم يبق بعد الثالوث غير ساق عارٍ تحت حراسة (سيفا) وهو المعبود المقدس عند كثير من سكان الهند .

ومن شروط عبادته تضحية الفتيات البالغات على صورة تقشعر منها الأبدان ولا تحتمل مشاهدتها العيون ، ولقد حضرت كثيرا من أمثال هذه التضحيات البشرية أثناء إقامتي في تلك البلاد.

والذي لفت نظري كثيرًا وكان موضوع اهتمامي هو الدرويش الهندي . وهذا رجل بلغ من الفقر أقصاه وأول شرط

من شروطه هو الفقر المقدع . إذ انه على ما يروون مقيد بصفات عشر لا مفر له منها وهي: أن يكون على الدوام جائعًا ، ولا يحق له أن يكون ذا رزق معروف ، وأن يسهر الليل كله ، ولا يبارح سيده مهما بلغ من إساءته ، والاكتفاء بأحط الأماكن ، وأن يسلم مكانه إلى كل قادم يريد الجلوس ، ولا يحول وجهه عمن ضربه يبتغي تجنبه ، وأن يقف بعيدا حين إحضار الطعام ..... إلخ .

إلي غير ذلك من الأمور العجيبة التي تجري في بلاد الهندوس ، بين المخلوقات البشرية ، وفي بلاد الهند يحصون عدد الدراويش ويميزونهم من غيرهم بالهندام والديانة التي تنسب إليها فهناك نحو اثني عشر ألفا من الوثنيين وعشرة آلاف من البراهمية ونحو عشرين ألفا من ديانات أخرى غير المسلمين وغير البراهمة لأن الدراويش المسلمين يلجؤون غالبًا إلى المساجد التي تقوم عليها المآذن المرتفعة فلا يظهرون كثيرًا في الطرقات كغيرهم إلا في غدوهم ورواحهم إلى أماكن معابدهم .

أما عادات هؤلاء الدراويش فهي متجاوزة الحد في خوارق العادات . فإن منهم من يعيش منعزلاً عن العالم حتى يدركه الموت، ومنهم من يغدو ويروح عاري الجسم تمامًا وينام كذلك عاريًا على الأرض ولا غطاء له غير السماء ، ومنهم من لا يتخذ الأخشاب

في إشعال النار ولو كان السيف على عنقه ، ومنهم من يحمل عصا طويلة على كتفه تعلق بها خرقه البالية ويطوف في طرقات المدينة ملتمسًا من الناس قوته ، ومنهم من يعيشون جماعات وهم الذين يلبسون ملابس مناسبة لحالهم وعلي رأسهم رئيس يعرف بينهم بلباس خاص وله سلسلة تتدلى على فخذية ويركع ويسجد بها في صلاته فيسمع لها صرير ، وعلي أثر ذلك يبادر الناس إليه بإحضار الطعام فيأكل وهو ومن معه من التابعين ثم بعد ذلك يهرولون إليه من كل فج فتكتظ حوله الجموع ويقبلون يديه وقدميه وأطراف ملابسه وبعضهم يقوم له صدقة ويظلون محتشدين حوله لسماع أقواله ونصائحه الدينية .

ومن هؤلاء الدراويش من يلبس لباسًا عسكريًّا ويتدرع بالحراب والأسلحة البيضاء . ولهؤلاء علمَ يرفعونه في مرورهم إيذانًا بقدومهم وطبول يدقونها إيذانًا برحيلهم . أما الكلام على شروط العبادة عند الوثنيين فهو يعد من النوادر المدهشة . وسأحكي كيف يسلكون في حركات العبادة وكيف يبذلون أرواحهم فيها طائعين مختارين لاعتقادهم أنها تقربهم من معبوداتهم فيخلدونهم في نعيم مقيم .

وبعضهم من يكمن في مكان خرب لا يحتمل الإنسان البقاء

فيه ساعة واحدة ومع ذلك فهم يمكثون فيه أعواما وبعضهم يظل واقفًا على قدميه ليلاً ونهاراً . صيفًا وشتاءً عرضة للبرد القارس ولظى الحر الشديد ، والأمطار الغزيرة ولدغات الأفاعي والعقارب، حتى يدركه الموت فيموت متأثرًا بأحد هذه الأخطار .

ومنهم من يربط جسمه بحبل ويتدلي من أغصان الأشجار العالية فلا يكون بالجالس ولا الواقف ولا النائم حتى يموت هكذا بين الأرض والسماء وتجف جثته وتذوب فتساقط عظامه قطعة بعد قطعة . ومنهم من يدفنون أحياء ويقبرون شهورًا ثم يخرج حيًّا كما كان . وهذا ما ترتابون في حدوثه معشر الأوروبيين الذين لم تروا شيئًا من عجائب الأقطار الهندية ، فأؤكد لكما ذلك تمامًا مما رأيته بعيني رأسي إذ وقع أمامي حادث من هذا النوع كان أعجوبة الدهر ومعجزة من المعجزات الهندية الكبري . وذلك أن بعض السائحين قد سمع بمثل ذلك من بقائهم تحت التراب شهورًا وخروجهم أحياء فلم يستطع أن يصدق ذلك مطلقًا وأراد أن يكون على يقين من أمرهم ولذلك فقد وضع رهانًا مع جماعة من الدراويش على أن يقبرا رجلاً حيًّا يظل في لحده أربعة أشهر فتم الرهان في مجلس حافل بكثير من أمراء الهند العظام وعدد عديد من الحكام والأجانب من الأوروبيين الذين ما كانوا يتوقعون

خروجه حيًّا بعد أربعة أيام .

هنالك تقدم رجل نحيل الجسم أسمر اللون لا يكاد يكون عليه من الثياب ألا ما ستر عورته . وكان معه فتى آخر فجعل هذا الأخير يدلكه شيئًا كشحم البقر ثم أرقده في صندوق قيس على طول قامته ثم غطوه وأقفلوه بالمسامير ثم واروه التراب على مرأى من الناس جميعا . وبعد أن هيل عليه التراب رش على قبره الماء حتى تحول التراب طينًا وعند ذلك بذروه بالحب وأوقفوا عليه حراسًا يتناوبون حراسته أناء الليل وأطراف النهار حتى تمت مدة الرهان بين الفريقين.

كنت في خلال هذا الأجل المضروب أتجول في الطرقات متفقدًا أحوال الناس في البلاد الهندية أم العجائب ومقر المدهشات والمعجزات مارًّا من آن لآخر بالمكان الذي ينام فيه ذلك الإنسان الهندي الجريء حيًّا . فكنت أجد الحراس وقوفًا به وإذا بالأرض قد اخضرت فوقه ونبت العشب فيها حتى نما وترعرع . وإني وإن كنت لا أستطيع البقاء ثلاثة أيام في بلد واحد إلا أني كنت أتنقل من بلد لآخر من بلاد الهند الرحبة غير غافل عن اليوم المضروب الذي يبعث فيه الدفين حيًّا . وكنت أستطيل الأوقات وأعد اللحظات رغبة في الوقوف على جلية الأمر .

فلما آن الأوان وأقبل اليوم المعلوم اكتظ المكان بجماعة المتراهنين وقد زاد عدد الحاضرين في هذه المرة بحضور أصحابهم وذويهم حتى ازدحم المكان بالمتفرجين ممن كان يقرأ في وجوهم البشر والسرور وتفيض ثغورهم ضحكًا وابتسامًا لرؤية ما عساه يكون من عجائب الأمور ونوادرها .

جلس القادمون جميعًا تحت إشراف البوليس الذي كان يحفظ النظام وشرع في فتح المقبرة لاستخراج جثة الرجل الدفين . وما هي إلا لحظات حتى أخرجوا الصندوق بما فيه فتقدم عامل من العمال بأدواته وأخذ ينحي غطاءه فلم ينكشف الصندوق عن شئ سوى جثة هامدة لا حراك فيها اللهم إلا العرق الكثيف الذي رطب جوانب الصندوق والرائحة الكريهة التي تنبعث منه إلى أنوف الحاضرين .

هنالك وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فلقد ظن أصحاب الرهان من الأجانب أنهم هم الفائزون وأنهم لا محالة من الرابحين، غير أن أصحاب الجثة لم يظنوا هذا الظن ولم يشكوا في أنهم كسبوا الرهان وكانوا من الفائزين المنتصرين على خصومهم وبيان ذلك أنه تقدم الفتي المعروف وبيده الشحم البقري على ما أظن وطفق يدلكه به ويدعك يديه وقدميه ويدخل منه في أذنيه وطاقتي أنفه

وعينيه وفمه. وإنه لكذلك إذ تحرك المائت قليلاً وزاد تحركه شيئًا فشيئًا حتى فتح أخيًرا عينيه فأبصر الجموع وقوفًا عليه وهم ذاهلون كأن على رؤوسهم الطير يتسابقون في مشاهدته ويتنافسون في الاقتراب منه والاستفسار عن حاله : فمن ضاحك ومن ذاهل ومن قائل: إنه من عمل الشيطان ومِن معتقد لصحة الأمر متوقع لحدوثه .

كان ذلك قبيل الشروق لشمس ذلك اليوم المشهود فلم تغرب شمسه إلا والدفين جالس بين الناس يقص عليهم ما أصابه في الأسبوع الأول فالثاني فالثالث من دفنه إلى أن فقد الشعور ولم يعد يعي أفي يقظة هو أم في منام إلى هذا اليوم كأنه كان في سفر أو كان في منام يومًا أو بعض يوم . ثم انفضّ الجمع وانصرف الناس إلى شئونهم وهم يتحدثون بغرابة الحادث ونوعه النادر المثال .

أما أنا فما كنت من الضاحكين ولا الهاتفين إذ كنت قد شاهدت كثيرًا من خوارق العادات في تلك البلاد . فكنت أري من هؤلاء الدراويش من يضع النار فوق رأسه ويدعها تحرق الشعر فالجلد فالعظم حتى تصل إلى المخ فيسقط صريعًا على الأرض ومنهم من يهب لمعبوده صومًا عن الكلام أعوامًا فلا ينبس خلالها ببنت شفة فلقد اتفق أن رأيت درويشًا ظل واقفًا على

قدميه عشرة أعوام بلا نوم ولا قعود وهو على هيئة التمثال قائم على صخرة وقد عقد أصابعه فوق رأسه فلا يتحرك في جسمه إلا عيناه البراقتان حتى نمت أظافره وغاصت في يديه كما تغوص المسامير في الخشب الجافّ، وسمعت أيضًا بما يماثل ذلك كثيرًا من القصص النادرة ومن ذلك سمعت أن منهم مَن ينزل في جب تحت الأرض على مسافة عشرين مترًا ومعه بعض من الزاد حتى إذا نفد زاده ظل جائعا حتى يهلك جوعا .

وزرت بلاد الهند بعد هذه الزيارة مرتين فوجدتها تقدمت نوعًا ما عن ذي قبل لحلول الأجانب فيها كأنهم علموهم واجب الحياة وقوموا أعوجاجهم .

بارحت الأراضي الهندية وما فيها موليًّا وجهي شطر مدينة الأسكندرية . تلك المدينة الأفريقية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، واتجهت منها إلى أوروبا فما أشعر إلا وأنا في أسبانيا عام ١٤٩٢ في الوقت الذي كان فيه خرستوف كولومب على أهبة السفر لاكتشاف البلاد الأمريكية بعد حصوله على السفن اللازمة لذلك من الملكة (إيزابلا) ، فتبعت أسطوله من بعيد معجبًا بثباته على العمل واعتصامه بالصبر على تحمل المشقات ، ولم يختف عن نظري حتى يمم الأرض الجديدة ونزل بها منتصرًا غانمًا فنزلتُ في

أثره لأتفقد أحواله ولا زلت به حتى التفت حوله جماهير الأمركيين يستطلعون خبره كما كان يستطلع خبرهم ، فعقدت الاجتماعات الحافلة وأقيمت الحفلات وألقيت الخطابات في فضل ارتباط البلدان بعضها ببعض وسهولة المواصلات وما ينجم عنها من الخير العميم لبني الإنسان على سائر أجناسهم.

ثم طفت هاتيك البلاد الواسعة أيام أن كانت في أغلال الهمجية والوحشية ، تلك البلاد التي ما كانت لتعلم ما تخفيه لها الأيام من العمران والتقدم وما كانت لتعلم بما قام فيها الآن من القصور الشاهقة التي تناطح السماء إذ رأيت بها أخيرًا في زيارتي لها لآخر مرة قصورًا ذات أربعين طبقة وأكثر من ذلك مما ترونه مستحيلاً عندكم. وفيما أنا كذلك إذ الناس كلهم يهرولون إلى البحار ويترحون إلى الشواطئ لمشاهدة السفن التي قدم بها خرستوف كلولومب إلى بلادهم .

يا لغرابة أمريكا وعادات أهلها من أغنياء وفقراء ، ويا لطبيعة جوها وسرعة تقلباته ، فالحوادث الجوية والطبيعية شائعة هناك شيوعًا كبيرًا وعلى الأخص الزلازل المستمرة من آن لآخر في جميع البقاع الجبلية وهو ما يسبب على الدوام كوارث جمة .

وهذه البلاد شهيرة على ما تعلمان بالمعادن النفسية التي

تحتوي عليها أراضيها الشاسعة ومناجمها العظيمة التي طالما كانت مطمح الدول الأوروبية ومرمي أحلامهم لتوطيد سلطانهم فيها ، ففي " شيلي " والبرازيل و " لانوفل جريناد " يوجد الذهب الوهاج بكميات كبيرة وهو ما لا يقل عنه في " بيرو " والمكسيك إذ في بلاد المكسيك أعظم المناجم التي تستخرج منها الفضة ومناجم الرصاص الثمينة كالتي ببلاد الولايات المتحدة والبرازيل ومن الأغراس النفسية في هذه البلاد ، أشجار الكينا التي تنبت في بقاع خاصة بها على شواطئ الأنهار ، وأشجار الكاكاو وكثير من الأشجار الأخرى والنباتات التي تجلب لسكان أمريكا رزقًا واسعًا وثروة طائلة .

هذا والفضل كل الفضل في جلب الذرة والبطاطس والطماطم إلى أوروبا راجع لأمريكا وحدها ، وهذه الأزهار الجميلة التي تزركش اليوم جنانها العديدة ، وهذه الكنوز النباتية التي تستخرج منها العقاقير الطبية والمواد الكيماوية ، وهي أغنى عموم البلدان في أغراس الفواكه وغيرها من المزروعات المفيدة كالقطن والدخان والنيلة.

والذي أدهشني في أمريكا عدم رؤية حيوانات كبيرة من ذوات الأربع ، ففي الجهات الشمالية منها لا يوجد في خدمة

الإنسان من الحيوانات غير الكلب ، ثم ما لبثت أن شاهدت فيها أنواع الغزلان المختلفة الأجناس والأسماء من الحيوانات الهادئة التي تفترسها الذئاب والثعالب والدب ذو الألوان المختلفة ، وسهولها وغاباتها غاصة بأنواع القردة التي تعيش جماعات .

ولقد لاحظ الأوروبيون فقر البلاد الأمريكية إلى الحيوانات الأهلية فأحضروا إليها كثيرًا من النعاج والبقر والعجول والخيل والبغال والحمير وغيرها من الحيوانات التي ألفت جوها وعاشت على أرضها أحسن عيشة ، وأصبحت ترى الآن فيها قطعان عديدة تسرح في مراعيها الرحبة ومزروعاتها الشاسعة ولاحظت فيها كذلك أنواعًا كثيرة من الطيور العجيبة غير التي عرفتها في غيرها من البلاد اللهم إلا الديك الرومي الذي كان يربيه قدماء المكسيكيين .

وأنهار أمريكا وبحيراتها تنتج أسماكًا عجيبة الخلقة مما لم أر مثله في غيرها أبدًا ، ولقد حضرت ذات مرة صيد الحوت ذي الجسم الجسيم وهو نوع من السمك يستطيع أن يدمر أسطولاً ، وفيها كذلك جملة أجناس من الحشرات الزاحفة كالأفاعي الوحشية الضخمة التي تعيش في غاباتها البكر تلك التي لم تطأها للآن أقدام الإنسان ، وبالجملة فإن أمريكا أم العجائب وهي التي تعلقت بها كثيرًا ولا زلت أحمل منها في مخيلتي تذكارًا دائمًا.

(بلاد المكسيك)
الرحلة التاسعة

طفت ببلاد المكسيك مدفوعًا بعامل من عوامل السرور وحب الاختبار فإذا هي محط رحال الباحثين ومرتع أنظارهم . فما أجمل حقولها وغاباتها وأنهارها وأشجارها المتنوعة التي تتدلى بأغصانها نحو الأرض كأنها تهدي لبني الإنسان ثمارها وخيراتها . وما لفت نظري من هذه الأشجار أنواع الفلفل والكاكاو والنيلة وجملة أشجار عديدة تصنع منها الأثاثات الفاخرة الجميلة .

ولقد حكم بلاد المكسيك ملوك عظماء ، ومن عام ٦٦٧ إلى عام ١٠٥٢ لم يتول زمام الحكم فيها سوى عشرة ملوك ، والسر في ذلك راجع إلى مقتضيات القوانين العجيبة التي يسود نفوذها في هذه البلاد . فإنها تحتم على الملك أن يجلس على عرشه اثنين وخمسين عامًا حتى إذا مات قبل إتمام هذه المدة يجتمع مجلس الشورى من نواب الأمة ويحل محل الملك المتوفي في الحكم باسمه حتى تتم مدة اثنين وخمسين عامًا . فإذا تمت يتوجون مَن يخلفه ليحكم مدة أخرى .

ولقد داهم الشعب المكسيكي وباء فتاك أودى بحياة عدد كبير من الناس .

وقد حل محل من هلك من الناس عدد كبير من القبائل . أذكر منها قبيلة يقال لها " شيشيميك " وقد اعتلى مليكها عرش الحكم في " تانوانياكا " وهي مدينة تقع على بعد ستة فراسخ من مكسيكو . وكان هو أول الأحد عشر ملكًا الذين حكموا عرش المملكة في هذه المدينة إلى عام ١٥٢١ وهو عهد فتوحات فرديناند كرتيز .

ومدينة المكسيكو هذه أسست عام ١٣٢٥ ، ولم تكن في بادئ الأمر غير مجموع أكواخ خشبية . فشتان بين مكسيكو اليوم ومكسيكو الأمس . فإن مكسيكو اليوم هي مدينة زمالها ذات الطرقات الرحبة المستقيمة التي ترى أواخرها من أوائلها على طولها العظيم وميدانها الفسيح الذي يزينه تنسيق مبانيه العالية وزخرف دوره الأنيقة . وقد قام على جانب منه قصر عظيم يفتن النظر ويخلب العقول . بناه فرديناند كرتيز إبان فتوحاته الشهيرة .

كان قدماء المكسيكيين في قديم الزمان عبدة أوثان ممن ظلوا زمنًا مديدًا على غير رشد وكانوا يضحون لمعبوداتهم كثيرًا من الضحايا البشرية المريعة وعلي الأخص أسري الحرب الذين كانوا

يقعون في أيديهم . ومع ذلك فقد كانوا على جانب عظيم من الحضارة والعلوم والفنون سيما العناية الكبرى التي كانوا يبذلونها في تحسين الزراعة وتوسيعها ببلادهم . وكان العدل فيها محترمًا والقوانين مرعية بعين الاعتبار . فكانوا إذا رأوا من قاضٍ أو أي حاكم آخر ميلاً إلى الغش أو تناول الرشوة يعدمونه بلا رحمة ، وكانوا يجلون الزواج ولا يدخرون وسعا في توسيع نطاقه ويجعلون مركز الجندي أو حمله السلاح عمومًا إجلالا لمعبودهم " إله الحرب " الذي كانوا يقدمون إليه أسراهم ضحية على صورة تقشعر منها الأبدان وتنفر من رؤيتها الأبصار .

الرحلة العاشرة

بارحت بلاد المكسيك قبل حملة فرديناند كرتيز ووصول الأسبانيين بزمان يسير ولم تقع مدينة المكسيك في أيدي الأسبانيين إلا بعد حرب ضروس تم فيها فتح البلاد عنوة . وبيان ذلك أن الأسبانيين طردوا من البلاد المكسيكية بعد استيلائهم عليها ثم عادوا فأخذوها مرة أخرى بعد قتال عنيف دام ٩٣ يومًا وأطاح بحياة آلاف من النفوس الإنسانية التي سالت دماؤها أنهارًا ولم يبق منها الآن غير عظام نخرة . وكان آخر ملك فيها " جواتيموزان " الذي دافع عن بلاده ببسالة حتى استطاع الأسبانيون تدمير الحصون العديدة التي كانت تعترضهم واستولوا على المدينة ، وهنالك حاول الملك " جواتيموزان " الفرار في زورق مع جماعة من الوزراء غير أن الأسبانيين أدركوهم وأسروهم وعند ذلك جيء بالملك وقرينته أمام القائد العام الأسباني فلما مثل أمامه قال له والدموع تترقرق في عينيه : لقد أديت واجب الملك الأمين على شعبه ودافعت عن أمتي دفاع المستقتل ولم يبق لدي إلا ان أموت بيد أعدائي فإن روحي لا تساوي عندي أكثر مما تساويه روح أحد

أفراد شعبي المسكين ، فخذ خنجرك وأرحني من حياة لا فائدة لي فيها بعد الآن .

فتأثر كرتيز من هذه العبارات الوطنية وأشفق عليه حتى اغرورقت عيناه بالدموع وأمر أن يكرم مثواه . وياليت حنان كرتيز وعطفه قد استمرا طويلاً بل اكفهر جو السياسة حتى تبدلت سماؤه بغيوم سوداء وامتد النفوذ الأسباني إلى حد كبير فأعلنوا الأحكام العرفية وعقد مجالس تأديب قرروا فيها أن الملك " جواتيموزان " ووزراءه كانوا يعرقلون مساعي السلطة الأسبانية ويحولون دون تنفيذ مأربها ويخفون عنها نفائس الأشياء كالذهب والجواهر . ولذا جاءوا بالملك ووزيره ووضعوهما فوق قضبان من حديد ثم أضرموا النار تحتها . فلما أحس الوزير ببوادر العذاب حوّل وجهه نحو الملك كأنه يقول له : خير لنا أن نعترف للأعداء بأماكن الذهب رغبة في النجاة من هذه الموتة الشنيعة . فلما أدرك الملك مراده قال له : ألست أنا إنسانا مثلك أصطلي ما تصطليه من العذاب ؟ كل ذلك على مرأي ومسمع من رجال السلطة العليا المحتلة الذين كانوا وقوفًا عليهما دون أن تبدو عليهم أي عاطفة من عواطف الإنسانية . فيا لله من مطامع الإنسان .. قاتل الله الإستعمار والمستعمرين .

الرحلة الحادية عشر
(بيرو)

بعد خروجي من بلاد المكسيك مررت بيرو تلك البلاد التي جمعت بين أرض خصبة وجنات مثمرة ودواب مفيدة وحيوانات مقيتة ، وهي تحت حكم أناس يقال لهم " أنكاس " . وقد كانت إبان القرن السادس عشر أقوى الأمم الأمريكية وأهمها . فأما أصلهم ومعتقداتهم وقوانينهم فذلك ما لم يصل إلى علم أحد من الناس إلى الآن . فلقد أسست هذه الدولة قبل الفتوحات الأسبانية بأربعمائة سنة . على يد أمير يسمى " مانكوكابوك " وهو الذي أخضع خلفاؤه في الحكم عددًا عظيمًا من القبائل حتى كونوا منها أمة كبيرة وجعلوها تتكلم لغة واحدة وتدين بدين واحد بل وترتدي لباسًا واحدًا . وكان لهم جملة معبودات أهمها الشمس التي كانت أقدس المعبودات عندهم . وكانت حكومتهم حازمة مدبرة ، دينها الوحيد ألا يكون في الشعب أفراد عاطلون ، فكانت تدعو العاطلين إلى زراعة الأرض واستخراج المعادن من المناجم ، ومَن يقصّر عن أداء واجب الحياة ويركن إلى البطالة غير ملبٍّ دعوة الحكومة يعاقب جهارًا على مرأي من الجمهور ويلقبونه الجبان ويلهبونه بالسياط حتى يقلع عن كسله ويستمر في

عمله . ومن ذلك تجد حقولهم ملأى بالمزروعات وحدائقهم زاهية
زاهرة وأسواقهم عامرة وكلهم حركة وجد ونشاط .

الرحلة الثانية عشر
(مرسيليا)

بعد خروجي من هذه البلاد طوحت بي مقادير القرن السابع عشر عائدًا إلى أوروبا وطنكما العامر في وقت كانت فيه الحرب تمزق الأبدان البشرية تمزيقًا ، وكان ذلك في عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وكانت جيوشه في هذا الحين تملأ فضاء العالم بضوضاء نصرها حاملة لواء فرنسا في كل البقاع .

رأيت بنفسي ذلك الملك القدير وهو يجتاز نهر الراين بجيوشه الظافرة . وحضرت كثيرًا من الوقائع الدموية التي أحدثها قواده وكنت في ذهاب وجيئة بين المعامع الفتاكة والرصاص يدوي بأذني والمدافع الرشاشة تعمل في الأجسام الإنسانية فلم يصبني شيء منها، ومع ذلك فكنت أخوض في بحر من الجثث المضرجة في دمائها بين أنين المحتضرين وصياح المبتورين وهجوم الهاجمين ودفاع المدافعين . ولولا ما يشغلهم عني في أوقاهم الرهيبة لالتفوا حولي وجعلوني أعجوبة القرن السابع عشر .

كنتُ قد أتممت في هذا الزمن طوافي حول العالم للمرة الرابعة

مخترقًا البحار والأنهار والجبال التي كانت تعترضني دون أن يصيبني ضرر ولا يمسني سوء ، ثم عرجت بمرسيليا وهي الميناء الفرنسى الشهية الواقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهي من أقدم المدن الفرنسية وأعمرها وأكبرها وأكثرها حركة .

ما كدت أترجل في أنحائها حتى أصاب أهلها وباء فتاك أودي بحياة آلاف من الأهالي الذين كانوا يسقطون في الطرقات أفرادًا وجماعات ، فغادرتها على عجل رحمة بها . ورفقًا بأهلها الذين جرت عليهم وقفتي كل شؤم ووبال .

الرحلة الثالثة عشر
(تونس)

إلى أين قادتني قدماي ؟ إلى أفريقيا منجذبًا بعامل من عوامل الشوق إلى زيارة أرض تونس وهي مدينة التجارة الواسعة التي تنقلها القوافل بكثرة إلى أنحاء البلاد الأفريقية .

أهل تونس يتكونون من الجنس التركي والجنس العربي الذين يدينون بالديانة الإسلامية إلا أنه يوجد من بينهم عدد كبير من المسيحيين واليهود . وحكومتها عثمانية واقعة تحت سيادة تركيا دينيًا وسياسيًا يدبرها حاكم عثماني يقال له " بيك " تعينه الدولة العثمانية .

ما لبثت أن علمت شيئًا كثيرًا من تاريخ تونس وما كانت عليه من قبل أيام أن كان الاستبداد ضاربًا أطنابه . وكانت مقر الاستعباد والرق والعسف الشديد ، على أنها اليوم غيرها بالأمس بفضل المدنية والعمران الحديث الذي صيرها قطعة من أرض أوروبا .

لا أخفي عنكما ما أصاب البلاد التونسية من جراء قدومي

إليها ووقوفي بأرضها ، فإن سحبا كثيفة من الجراد لبدت سماءها وأظلمت جوها الجميل ثم هبطت إلى أرضها فاحتلت المزروعات احتلالاً نظاميًا لم يسمح لأصحابها بتحصيل شيء منه . وعلى أثر ما أبيد من مغروساتها عمّت بها مجاعة شديدة أدمت أكباد العباد وصيرت أرضهم قاعًا صفصفًا فلم أستطع أن أشاهد كل ذلك وأطيل مدة البقاء بأرضها وعقدت نيتي على الرحيل رغم شوقي إلى تفقد أحوال سكانها .

الرحلة الرابعة عشر
(مصر)

غادرتها مسرعًا ووجهتي مصر أرض الفراعنة القدماء وأم الآثار القديمة والحضارة والعمران والمجد العظيم ، فجرّت زيارتي على شعب وادي النيل ما كان أشد مما أصيبت به جميع الأقطار التي مررت بها من قبل فإن جيوشًا قوية قد أغارت على أراضيها عنوة واقتدارًا تحت قيادة نابليون بونابرت حتى كانت الأمة المصرية في هرج ومرج ورعب في كل مكان . وكان سلطان الجيوش الفرنسية يدوي تحت سماء مصر ويتصرف في رقاب رعاياها كيف شاء فاتخذ معابدهم حظيره للخيل واقتحم حرمات الحرية وأخضع السياد وأذل الرقاب .

ولقد جرت موقعة عنيفة قامت بين المماليك والجيش الفرنسي كان لها أكبر هول في النفوس . وكنت أتمشي حينذاك بين رؤوس تتطاير وأبدان تتمزق وتنتثر في الهواء حتى أظلم دخان الحرب جو مصر الجميل أيامًا . وكان القائد العظيم نابليون بونابرت يتقدم بجيشه ويصيح برجاله لتشجيعهم وتقوية عزائمهم .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وكان ما كان من أمر نابليون ومطامعه الاستعمارية كنت لا أزال أطوف البلاد المصرية وأتفقد عادات شعب النيل الذي لفت نظري عن كثير من الشعوب الأخرى التي مررت بها . فوقفت على جميع أحوالهم من حيث الديانات والعادات والأخلاق والأرزاق .

شعب مصر طبقات يختلف بعضها عن بعض اختلافا ظاهرًا . الطبقة الأولى طبقة رجال الدين وهي طبقة المشتغلين بتلقي العلوم الدينية والأدبية ولباسهم اللباس الشرقي الذي يمثل الطبقة المصرية الأصلية . ثم طبقة الموظفين والطلبة والصحافيين وكثير من التجار والصناع ثم طبقة العمال وهي كثيرة العدد لأنها تشمل جميع أصحاب الحرف الصناعية . وهؤلاء جميعًا أميون تقريبًا لقلة التعليم في بلادهم وضعف ميل حكومتهم نحو نشر التعليم وتوسيع نطاقه . ولذلك فمعظمهم أشقياء سيؤو الخلق يتنازعون فيما بينهم ويتضاربون في الطرقات لأدنى سبب ، ويحبون الظهور على بعضهم بالبطش والقدرة ، فتقع بينهم المعارك الدموية ويزجون في السجون أفرادًا وجماعات .

ثم طبقة الفلاحين الذين يسكنون القرى ويشتغلون بزراعة الأرض والاتجار بحبوبها وأقطانها وغير ذلك من خيرات أرض مصر

الخصبة التي تزرع في العام الواحد ثلاث مرات أو أكثر ، وهذا هو السرّ في أن الأجانب يطمعون في كل زمان أن يكون لهم نصيب منها أو امتياز فيها .

هذه الطبقة الأخيرة وإن كانت أو تكاد تكون كلها من الأميين إلا أنها أكثر الطبقات الأخرى تمسكا بالدين وحسن المعاملة. فإن الفلاح المصري لين الجانب ترى على وجهه علامات الوداعة وحسن الضيافة وسلامة النية . وهو رجل جد واجتهاد لا يمل عمله ولا يشكو للتعصب والنصب .

وعادات المصريين متضاربة وطبائعهم كذلك ، فهم لا يتفقون على شيء ولا يثبتون على التضامن طويلا كما تعمل الأمم الراقية المفكرة التي تقدس المصلحة العامة . ومن أمراضهم الاجتماعية أنهم يقسمون أحزابًا ويتنافرون كثيرًا .. ويا ليتهم يتنافسون في مصالحهم العامة التي تعود على بلادهم بالخير والفلاح ، وتصدّ عنهم مطامع الطامعين ، بل في مصالحهم الشخصية ويودّ كل واحد منهم لو يكون وحيدًا في الجاه والعظمة والرياسة لا ينازعه أحد ، على أنه إذا نبغ منهم نابغ رشقوه بالقذف واللعنات والشتائم المعيبة ، وائتمروا على إسقاطه فلا يهدأون إلا إذا بلغوا مرامهم منه ، فإذا أخفق بشروا أنفسهم بسقوطه وتهللت وجوههم

غبطة وسرورًا ، ومن رأي معاملتهم هكذا فيما بينهم ظن أنهم خطر على الأجانب الذين لا تجمعهم بهم جامعة الجنسية واللغة والدين . مع أن الأمر بالعكس فرغم كونهم مسيئين لأبناء جلدتهم شرًا على مواطنيهم ، فهم أكرم الأمم نحو الأجنبي وأوسعهم صدرًا له، إذ المصري يتفانى في العطف على الأجنبي والميل الطبيعي إليه والمحافظة على مصلحته والعمل على نفعه .

والمصريون عريقون في المجد ماهرون في العلوم والآداب ، فمنهم الشعراء العبقريون والكتاب النابغون ، والمتعلمون منهم غاية في الذكاء والفطنة والفضيلة يمقتون العادات السافلة ويحاولون القضاء عليها قضاء مبرمًا ، غير أنهم فقراء الحيلة والوسيلة في مقاومتها لأن السواد الأعظم منهم متمسكون بالخرافات القديمة ، ميالون بطبيعتهم إلى الطبول والزمور وعقد المجتمعات الحافلة فيما لا يفيدهم شيئًا بل ما يسقطهم في أعين الأجانب الذين يجهلون مجدهم ولا يعرفون شيئًا يذكر من دينهم القويم الذي يحرم عليهم كل ذلك وهم لا يشعرون .

ومنهم الأغبياء الذين لم يجدوا من يقوّم اعوجاجهم ويهذب أخلاقهم ويشفيهم من مرض الجهل والتفريط في مصالحهم وسوء التصرف في شئونهم الخاصة . فهم يطلقون أطفالهم ودوابهم

وطيورهم بالنهار ثم يطوفون في طلبها بالليل مالئين الأحياء صياحًا يصمّ الآذان ويقلق الراحة العامة زيادة على صياح باعتهم ذوي الأصوات النكرة .

وقد أدي تفريط حكامهم إلى المساعدة على انتشار الخزي والعار ، غير عالمين أنهم بذلك يرجعون بأمتهم إلى الوراء في عصور التقدم والحضارة المتلألئة في عموم الأقطار . وهم يبيحون لكثير من أفراد شعبهم تعاطي الحرف المخجلة ولذلك فمن المصريين الدجالون والهزليون والماجنون والراقصون والطبالون والزمارون وقادة القردة .

كل ذلك يجري في بلادهم والحكام يتعامون عنه فيحتقرونه ويزدرونه دون أن يعملوا على إبادته بحزم وعزم لاشتغالهم بأنفسهم وشخصياتهم وشهواتهم .

والنساء المصريات أمان كثيّرا إلا قليلات منهم . فإن كثيرًا منهن يغلبن على رجالهن فينصبن المناحات المقبضة التي تملأ النفس رعبًا وفزعًا . ويقمن حفلات تعرف عندهن بالزار وهو ما لم أره في عموم الأقطار الأرضية التي مررت بها أثناء هذا العمر الطويل وذلك أنهن يجتمعن في بيوتهن ويأخذن في دق الطبول والأناشيد وعند ذلك يقمن ويرقصن على ما أعلم متوهمات أنهن يتحركن

بغير إرادهن في هذه الأعمال بل بدافع من الشياطين التي تلبّس أبداهن فتجعل إحداهن تتخبط دون أن تعي ولا تعلم ما هي فاعلة حتى تفيق بعد انصراف الشياطين عن جسمها ، وأزواجهن يعتقدون هذا الاعتقاد ويساعدوهن ببذل النفقات الباهظة في هذا السبيل مما يصبحون من جرائه فقراء المال والحكمة والعقل .

هذا من حيث النساء ؛ وأما من حيث الرجال فكثير منهم لا يقلون عن ذلك في الضلالة والجهل ففي شوارع القاهرة نفسها عاصمة البلاد المصرية وعلي مسمع ومنظر من أئمة الدين ورجال الحكومة وتحت شرفات المنازل الغاصّة بالمتفرجين من الأجانب تقام حفلات تسمى عندهم بالذكر . وهذا الذكر عبارة عن طبول وزمور وترنحات الصبية الضائعين الذين يتضورون في الطرقات نهارًا بلا صنعة ولا بضاعة ويجتمعون ليلاً فينظمون حلقة واسعة من المتشردين الحفاة واللصوص المهرة ، ويملأون الجو صياحًا ورقصًا ظانين أنهم يقيمون شعائر دينية تقربهم إلى الله ، وحاملين غيرهم من الأجانب على هذا الاعتقاد فيرون أنه هكذا يعمل المسلمون في عبادهم وصلواهم .

وكما أن حكامهم قد سلّموا بترك المرأة تتخبط في عقد المناحات والزار فهم يسلمون كذلك بترك الرجال غير المتعلمين

يتخبطون في جهالتهم بلا رادع ولا مرشد حتى يجروا على أمتهم العار الفاضح في زمن العلم والحضارة ، وتتواتر العادات المخجلة في أبنائهم إلى الأبد . ولما كان حكامهم لا يشجعون الأهالي على استثمار خيرات البلاد واستخراج كنوزها الثمينة بأنفسهم ومجهوداهم الحيوية فإن الأجانب يترحون إليها من كل فج ويضعون أيديهم على تجارهًا وصناعتها ويكثرون من توسيع نفوذهم وسلطاهم في مصر حتى أصبحت من هذه الوجهة غنيمة الأجنبي الطامع الذي يتوقد شراهة لما يراه من المصريين من عدم الغيرة السياسية على بلادهم . وكان دخول الأجانب فيها سببًا في تغيير أخلاق أهلها وعاداهم. فإهم أخذوا يقلدون الأجانب الأوروبيين . ويا ليتهم قلدوهم في جدهم وعملهم وصبرهم على العمل وثباهم عليه والإقبال على العلوم والفنون والابتكار والاختراع بل قلدوهم في ملابسهم واختلاط النساء بالرجال، فشاركت نساؤهم الرجال في الحانات والملاهي والمراقص وتبرجن تبرج الأوروبيات ، الأمر الذي يحرمه عليهم دينهم وجنسيتهم الشرقية الغراء .

فلا أقسم بسماء مصر وصفائها وأرضها السندسية وبهائها ونيلها وقلاعها والأهرام وبنائها ، إن المصريين لفي غفلة عما

وهبتهم الطبيعة إياه . فلا يكادون يفهمون قدر هذا الوطن الجليل حتى يصونوه من شر حاسد إذا حسد أو طامح إذا سطا . وإنهم الذين فرطوا ويفرطون في حقوقهم بكرة وأصيلاً حتى أصبحوا أحدوثة في تاريخ أمم العالم بعد أن كانت بلادهم كوكبًا دريًّا في سمائها وسراجًا وهّاجًا في عصور الهمجية الماضية ، وكان يمكن لمصر أن تكون أوسع ملكًا وأرفع مقامًا وأجل قدرًا لولا أن شعبها قد اتبع هواه وكان أمره فُرُطًا .

ومن غريب ما شاهدته من أخلاق المصريين وعاداتهم أنه بينما كنت أسير في أنحاء المدينة لأقف على أخبار أهلها بعد أن استولت على بلادهم الجيوش الفرنسية الغاصبة إذ سمعت صياحًا عاليًا وضجة كبيرة خلتها حركة وطنية من شأنها مقاومة العدو الجائر الذي سطا على أرضهم وهم آمنون مطمئنون في ديارهم دون أن يفكروا في إيذاء أمة من الأمم فإذ هي طبول ومزامير وموسيقات تصدح ومركبات تحمل النساء والأطفال وأخرى تقل الراقصين والراقصات والماجنين والماجنات ووراءهم الأطفال يتجمهرون ويضحكون . فعجبت لأمرهم وهرولت نحوهم لأقف على شيء من أخلاقهم ولازلت بهم حتى رجعوا في المساء إلى بيتهم وإذا هو مزدان بالأعلام الحمراء ذات الأهلة البيضاء والمصابيح الساطعة

وقد نشر على الجدران قماش مزركش بالألوان المختلفة وصفت المقاعد وأعدت المعدات الفاخرة . والناس في قيام وقعود ومصافحة وتحيات ومقابلة النكات بالنكات والمضحكات بالمضحكات حتى مدت الموائد وأقدم عليها عشرات العشرات ، وبعد أن أكلوا وشربوا أخذ السرور من نفوسهم كل مأخذ ، فنصبوا في وسط الطريق مقعدًا مرتفعًا عن مقاعد الجالسين استوى عليه المغنون بآلاقم البراقة ومشروباقم الروحية المنعشة فشرعوا يسمعون المدعوين نغمات آلاقم وترحات أصواقم . وكلما أتوا بنغمة قام الحاضرون وقعدوا وتراموا كأمواج البحر وملأوا الجو صياحًا واستحسانًا لما في نفوسهم من طرب ونشوة .

كنت واقفًا على مقربة من هؤلاء أنظر إلى كل ذلك دون أن أشاركهم في شيء فأبصرت شخصًا قادمًا نحوي وهو يفتل شاربيه وقد طوق رأسه بمنديل من حرير وعلي صدره ويديه كثير من النقوش الخضراء التي رسمت على هيئة السمكة والتماسيح والأفاعي وغيرها . فدنا مني قائلاً : ما بالك يا هذا ؟ ألا تريد الجلوس أو الانصراف ؟ فقلت له : لا غاية لي يا سيدي في الجلوس بينكم وأنا غريب عنكم فأرجو أن تدعني وشأني ولا تنشغل بي عما يهمكم ويسركم مفارقتي . ومضي ثم ما لبث أن عاد مرة أخرى

ومعه صاحب العرس . وهو رجل قصير القامة عظيم الجثة طويل الشاربين على رأسه منديل من الحرير الأبيض يغطي أذنيه ويستر جبينه وحاجبيه وتتدلى أطرافه المترامية على عنقه وكتفيه . وقد ارتدى لباسًا واسعًا من الجوخ الأزرق وفي قدميه نعل أصفر عريض الشكل .

أُقبل علي وهو على هذه الصورة وقال لي : مَن أنت أيها الشيخ ؟ ولم لا تريد الجلوس معنا ؟ أليس لك رغبة في السماع والطرب ؟ وإذا كنت لا ترغب في ذلك فما معنى وقوفك هكذا من بعيد وأنت رجل كوالدنا . فقلت له : عفوا يا سيدي إذا رأيتني كذلك ، ولا يشغلكم عن شغلكم شاغل . أسأل الله أن يتم لكم أفراحكم بخير وسلام أنا رجل غريب قدمت إلى بلادكم منذ يومين وفيما كنت أطوف أنحاء مدينتكم الجميلة إذ استوقفني جمال زينتكم فلا تسيئوا الظن بي ولا تحسبوني أجنبيًّا من الطامعين الذين إذا امتد سلطانهم أوقعوا الأذي بغيرهم من الأمم الضعيفة وأبادوا في سبيل شهواتهم السياسية أطهر الأرواح وأزكاها . ويهمني الآن يا سيدي ألا يثقل عليك حديثي ولا تبخل على بالإجابة على بعض الأسئلة أوجهها إليك . فقال : أهلاً وسهلاً ومرحباً . قلت ما اسمك ؟ قال : سيد طلبة . قلت وما هي صناعتك ؟ قال . سماك

أبتاع السمك نيئًا وأطهيه بحانوتي لأبيعه للناس . قلت : لعلك من أصحاب رؤوس الأموال . قال . كلاً فما أنا والله إلا رجل فقير الحال رغم ما تراه أمامك من الزينات والأفراح . قلت : ومن أين لك هذا المال الذي تنفقه عن سعة فيما لا يعود عليك بنفع يذكر؟ قال : بعضه كان عندي جمعته في زمن طويل والبعض الآخر اقترضته لنتم به أفراحنا وأقوم بسداده بعد العرس شيئًا فشيئًا . فقلت له : أمن الحكمة أن تنفق كل ما ملكت يداك من مال الصبي مع مال غيرك تلقيه على كاهلك فتصبح بعد أن كنت ذا مال مدينًا للناس ذليلاً لهم لا لضرورة أديتها ولا لحاجة قضيتها ؟ قال : وماذا نصنع إذن يا سيدي وتلك آمالنا وآمال نسائنا أن نزوج ولدنا الوحيد وقرة أعيننا درويش بابنة جار لنا . قلت : وماذا عسي أن يبلغ ولدكم درويش من العمر ؟

فطأطأ رأسه حياء وقال . أنه والحق يقال لا يزال صغيرا بالنسبة إلى الزواج فإن سنة ستة عشر سنة وقرينته لا تزيد عنه سنًا. فقلت : إذن هو لم يتم تعليمه بعد ولم يحصل على شيء يقتات منه وهو وقرينته إلا إذا كان بجانبك . قال ماذا تعني بالتعليم يا سيدي ؟ إنه يحسن الآن طهي السمك كما أحسنه ولا غاية لنا في تعليم أكثر من ذلك . نحن معشر الفقراء مثلنا كمثل السائحين في

الماء إذا ونت أذرعنا عن العمل لحظة واحدة رسينا إلى الحضيض .

فقلت له : أراني قد أطلت عليك الحديث وربما أكون قد شغلتك عن أمورك لكنه بقي لدي سؤال واحد أرجو أن تجيبني عنه وهو كيف أنكم تغنون وترقصون وتمرحون وقد استولت على بلادكم جيوش جرارة لقوم لا يرحمون ووقعتم في الأسر والاستعباد؟ ففكر قليلا ثم قال : وما لنا ولهذه الجيوش الجرارة ؟ إن للجيوش شأنًا ولنا شأن آخر . نحن في طبولنا وزمورنا وهم في مدافعهم وبنادقهم . قلت : ألست مصريًّا يهمك أمر مصر بلادك؟ أيسرك أن تكون في قبضة عدو لا يشفق عليك ولا يرحمك ؟ قال: إن ذلك لا يسرني ولا يحزنني . فدعني وشأني ولا تحدثنا بأمور لا نعرف عنها شيئًا . ولا تعكر صفونا بهموم الدنيا وذكرها في ليلة نريد فيها إدخال السرور على أهلنا .

قال ذلك وقد عاد أدراجه موليًا وجهه نحو أصحابه الذين كانوا يدعونه من بعيد .

ماذا جرّت وقفتي على هؤلاء المساكين من المصائب ؟ انقضت عليهم جماعة من الأشقياء تعرف عندهم " بالفتوات " يحملون النبابيت الغليظة والعصي الطويلة وأخذوا في تشتيت شمل المجتمعين لا لذنب جنوه سوى اجتماعهم على هذه الصورة لأن هؤلاء

الفتوات يرون أنه عار على شرفهم ونقصهم في حق بطشهم أن يدعوا اجتماعًا كهذا أو حفلة راقصة دون أن يفرقوها شذر مذر ويحطموا مصابيحها ويعكروا صفوها . فقابلوهم بضرب الكراسي والأواني وظلوا كذلك حتى مطلع الفجر فاشترك البوليس في الأمر وقبض على الأشقياء وساقهم إلى السجن . وهكذا كانت نهاية العرس .

أما أنا فوليت الأدبار داعيًا لأغنيائهم بالحكمة ولأشقيائهم بالهداية وللعروسين بالهناءة والرفاهية . وبعد أيام قلائل مررت بحيهم هذا فعلمت أن الزوج قد طلق الزوجة لخلاف وقع بين أبوي العروسين .

ويعجبني في مصر كثيرًا ما عليه حال الشعب المصري من المساواة والتسامح، فإنه يتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود ، غير أنكما لا تستطيعان أن تفرقا في الجنسية واللغة ولباس بينهم . الجميع واحد وعملهم واحد ومساجد المسلمين وكنائس النصارى في بقعة واحدة ، والبيت الواحد يسكنه المسلم والمسيحي واليهودي ويقيمون معًا على أحسن حال من التعاون والعطف كأنهم أسرة واحدة يسعى كل فرد منها في نفع الآخر ويصون مصلحته ويحافظ عليها بمقدار ما يحافظ على مصلحته ويصونها .

وطبيعة البلاد المصرية غاية في الاعتدال ولا يسقط المطر فيها إلا نادرًا ، وحرارة جوها محتملة لا ضرر فيها على من لم يتعودوا طقسها . وأشهر المدن فيها القاهرة عاصمة البلاد المصرية وهي حسنة المنظر لا تمتاز عنها عواصم الدول الأوروبية إلاَّ قليلاً وهي واقعة على ضفاف النيل . وفيها المباني الشاهقة والحدائق الغناء . وفيها من الآثار القديمة الهامة ما يفد من أجله السائحون من أقاصي البلاد لمجرد النظر إليه والإعجاب بجماله وجلاله لأن مصر مهبط الآثار وينبوعها الوحيد لما كان لقدماء المصريين من الشأن العظيم واليد الطولى في العلوم والفنون . ومن أسعدته الظروف بزيارة متاحفها وآثارها القديمة استطاع أن يعرف مَن هم المصريون القدماء وكيف آل أمر دولتهم وصولتهم إلى حال اليوم . ولو كان نابليون قدم زمانه إلى أرض مصر في عهد أحد ملوكها القدماء لدكّه على أسطوله أو دكّ أسطوله عليه . فسبحان المعز المذل . سبحان من لا يشرك في حكمه أحدًا .

وتقوم في ضواحي هذه العاصمة أهرام عظيمة هي بناء يناطح السحاب . إنها جبال صناعية بنيت في عهد الملك خوفو لتكون قبرًا له ، فمر عليها آلاف السنين ومع ذلك لم تصل إليها يد الدهر بسوء . كلاّ ولا يد الإنسان التي خربت جميع المباني القديمة .

الرحلة الخامسة عشرة والأخيرة
(مدينة يافا)

غادرت مصر آسفا على فراقها وما أصابها من جراء قدومي إليها، ولم أعرف إلى أي مكان أسير ولا أي البقاع أقصد بينما قدماي تنهبان الأرض نهبًا إلى أن وجدت نفسي تحت أسوار مدينة يافا . وهي المدينة الآسيوية الشهيرة التي يرجع تاريخها إلى عهد نوح عليه السلام . وهي على غير ما يرام من حيث النظام والنظافة والحالة العامة . فإن طرقاتها ضيقة وملأى بالقاذورات والأوحال . إلا أنها ميناء تجارية عظيمة يفد إليها آلاف الزائرين الذين يقصدون أورشليم للحج والتجارة . وهي تبعد عنها نحو ٥٠ كيلو مترًا فكنت سعيدًا ببقائي بهذه المدينة إذ كنت على مقربة من وطني العزيز ومسقط رأسي الذي كنت أحن إليه حنين الثكلى كلما مررت بقربة .

لمدينة يافا نصيب عظيم في التواريخ الدينية الغابرة . فلقد قدم إلى ثغرها نبي الله يونس عليه السلام وأظنكما تعلمان شيئًا عنه من الكتب المقدسه . أرسله الله تعالى نذيرًا للبشر فامتلأ صدره رعبًا

وفرَّ مبحرًا إلى " تارس " فأرسل الله عليه ريحًا صرصرًا أهاجت أمواج البحر وأثارت الاضطراب البحري الشديد جزاء توقفه عن تنفيذ ما أمره الله به ، فقال يونس عليه السلام لمن معه من البحارة: اقذفوني في البحر فهذا فيه خلاصكم مما حل بكم من حنق الطبيعة . ولما ألقوه في البحر التقمه الحوت وظل في بطنه ثلاثة أيام ثم ألقاه على اليم بالساحل صحيح الجسم سليمه . فقام في الحال منفذًا ما أرسل من أجله طائعًا ممتثلاً .

وفي عام ١٧٩٩ استولى القائد العظيم نابليون بونابرت على مدينة يافا في الوقت الذي قدمت فيه إليها . وياليتني ما قدمت إليها ولا كنت سببًا في تلبد جوها الجميل بسحب التخريب والتدمير وانتشار الأوبئة الفتاكة إذ كان الناس يموتون بالآلاف ثم ما لبث ذلك الوباء أن لحق بجيوش نابليون وهددها بالفشل وخيبة الأمل ، وكان يطوف بجنوده فيواسيهم بنفسه ويطمئن أفئدهم بحلو الكلام ورباطة الجأش فيلمس بيده جراح الجنود ويفحص أجسامهم ويقبر موتاهم بعناية وحزم وصبر . وهو على ذلك باسم الثغر براق العينين ممتلئ القلب همة ونشاطًا .

ماذا بقي لدي أن أقصّه عليكما من قصصي الطويل وأمري العجيب ؟ بعد ذلك غادرت تلك المدينة فريسة يقلبها الموت في

يده كيف شاء ، وأنا إذ ذاك مثقل بالذنوب والآوثام فأخذت أجدّ في السير زهاء عشرين عامًا حتى وجدتني بالأراضي الأمريكية سنة ١٨٢٢ وساقتني قدماي إلى شيلي على مقربة من مدينة " فاباريزو" وهي ميناء تجارية هائلة . فحدث أثناء وقوفي بها أن زلزالاً شديدًا خرب هذه المدينة الجميلة حتى كان جوف الأرض يبتلع المباني الشاهقة بما فيها من المخلوقات . فأبيد عدد عديد من الناس تحت أنقاض المباني وأنا بين ذلك حي أرزق لم يمسني القدر بسوء ولم يصبني بضرر يذكر ، فجثوت على ركبتي فوق تراث هؤلاء الضحايا باسطًا اكف الضراعه إلى الحق جل شأنه أن يضع حدًّا لما أنا فيه من العذاب الشديد فسمعت صوتًا يجيبني قائلاً: إن الله لا يجيب دعاء مذنب أثيم .. قم وسر في طريقك .

فتركتها وأهلها تحت التراب متجهًا نحو بلادكما. وهأنذا بين يديكما أسأل الله تعالى ألا تجرّ وقفتي بهذا البلد الأمين مكروهًا على أهله . وأرجو أن تسمح الي بالسير في طريقي المعتاد إذ لا أستطيع البقاء معكما أكثر من ذلك لأني أرى في السماء ثلاث علامات على شكل أقواس كتب فوقها بحروف من نار " الجمجمة "

تمت

حياة الحضري